نصوص سردية
١

الفجر طيور

يخلف يحيى

– ١ –

كان لا بد أن تحدث هزة أرضية، وان تخرج الأرض أثقالها، وان تستيقظ النار الكامنة في جوف البركان. كان لا بد أن يحدث شيء يطرد السأم، ويلقي بالكآبة على قارعة الطريق، ويجلي الصدأ العالق على أطراف الروح.

كان لا بد أن يحدث شيء يشبه تدحرج الصخور من عل، أو زئير الأسود في عمق الغابة، أو اندلاع النيران في أعالي الجبال. كان لابد أن يحدث ذلك قبل أن ينقسم الى نصفين، وقبل أن يأكل القهر جوعه، ويشرب عطشه.

ها هو الصمت يتحول الى زجاج ثم ينكسر ويصبح شظايا... ها هو يعود تاركاً وراءه سحب الدخان واللهب وقنابل الغاز، والطلقات المطاطية. الشبان الذين يهجمون بالحجارة، والجنود الذين يعتمرون الخوذ ويطلقون الرصاص والقذائف.

كان قادما من الأغوار، عندما اندلع الحريق. امتلأت الطرق بالدوريات الإسرائيلية. حواجز وتفتيش ثم حواجز ودبابات تغلق الطرق المؤدية الى رام الله من جهة مستوطنة (عوفرا)، ولذلك سلك طرقاً ترابية تحاذي قرية دير دبوان، ثم طرقا أخرى تحاذي قرية بيتين. وجد نفسه يخرج من منفذ يحاذي مستوطنة (بيت ايل)،

فصول من رواية لم تصدر بعد

ويفضي الى ساحة فندق (سيتي إن).

النيران تتصاعد من العجلات المطاطية، والجنود يعتلون سطح الفندق، وينشرون سياراتهم المصفحة، ويطلقون النار على الجماهير الغاضبة. وجد نفسه في منتصف المسافة ما بين الجنود وسيارات الجيب العسكرية، وما بين الشبان وإطارات النار المشتعلة، والرايات الخفاقة من وراء الحريق.

توقف لأن الطريق مغلق بالحاويات وقطع الحديد وهياكل السيارات. سقطت قربه قنبلة دخانية فأغلق نافذة السيارة وفكر فيما يتعين عليه أن يفعل. شاهد فتى يقفز من وراء الإطارات المشتعلة، يقترب من القنبلة التي تطلق الدخان الأبيض فينحني ويلتقطها ثم يرفعها عالياً ويلقيها نحو الجنود... يعيدها من حيث أتت. وفي اللحظة نفسها، جاءت طلقات.. طلقات سريعة أصابت الفتى وعند ذلك، فتح باب السيارة، وحرّر نفسه من الحزام، وخرج إلى الشاب الذي بدأ يترنح ثم يسقط على الأرض، هجم على الفتى وحمله بين ذراعيه. كان دم غزير ينزف على الوجه والرقبة ويسيل على ملابسه.

اندفع به يبحث عن فجوة ، فيما ظل صوت الرصاص يمر من فوقه. اقتحم سد الإطارات المشتعلة مبتعداً عن الجنود، ووجد نفسه أمام الجموع التي تشتعل بالغضب، وتواصل رمي الحجارة. هرع إليه عدد من الشبان، وساعدوه على حمل الفتى الذي ينزف، وسرعان ما ظهرت من وراء الجموع سيارة إسعاف.

\ \

باحة المستشفى تنغل بالناس، وسيارات الإسعاف تشق طريقها بصعوبة. آباء وأمهات وأعمام وأخوال، أخوات وزوجات، كبار وصغار، قلق على الوجوه، وذعر في العيون. الممرات مزدحمة. والطريق إلى غرف الإسعاف مغلق، وأمام غرف العمليات يقف رجال الشرطة. يختلط الأطباء والشرطة والناس ورجال الصحافة، ومصورو المحطات الفضائية في الردهات، وبين لحظة وأخرى ينطلق رنين الهواتف المحمولة، فهذا اليوم وصل إلى المستشفى مئات الجرحى أو الشهداء، وكل محاولات رجال الشرطة لإبعاد الناس باءت بالفشل.

شق كمال طريقه بصعوبة داخل الممر الذي يفضي إلى غرف العمليات. كانت ملابسه لا تزال ملطخة بالدماء. كانت الدماء ما تزال رطبة ولما تجف بعد. عند باب غرفة العمليات كان رجال الشرطة يقفون، ويمنعون الناس من الدخول.

كانت صبية تسأل عن أخيها بإلحاح، ورجل عجوز يرجوهم أن يسمحوا له بالدخول للاطمئنان على ولده، وكان ضابط شاب يحاول أن يشرح لهم. وقف كمال

ينتظر. حدق شرطي بثيابه الملطخة بالدم، قال له وقد ظنه جريحاً:
– إذهب إلى صالة الإسعاف..
– لست جريحاً ، قال كمال، أضاف :
– لقد حملت جريحاً وجئت به إلى المستشفى، من خطوط التماس، وأريد أن أطمئن عليه.
أجابه الشرطي: إنتظر، عندما يفرغ الأطباء من عملهم ستعرف كل شيء..
إبتعد كمال قليلاً، وخطر له أن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن يظهر الأطباء، وأن عليه أن يجد مكاناً ينتظر فيه، يستطيع أن يجد به مقعداً، وربما فنجان قهوة. خرج إلى الساحة، فالساحة أقل اكتظاظاً. وفجأة دخلت سيارة إسعاف يسبقها نفير عال، فتدخل رجال الشرطة في الحال، وطلبوا من الناس إخلاء الساحة لأن ثمة مصابين جدداً قد وصلوا.
ابتعد الناس ، وافسحوا الطريق للسيارة ، وعند ذلك قرر كمال أن يبتعد، فخرج إلى الشارع.. في الشارع ازدحام أقل، وثمة باعة عصير، وساندويتشات ، وبائع قهوة متجول..
جلس على كرسي صغير من القش، وشرب فنجان قهوة، أشعل سيجارة. اقتربت منه مذيعة شابة يرافقها مصور يحمل على كتفه كاميرا فيديو، وسألته: هل كنت هناك في المواجهات؟..
أجابها: وجدت نفسي هناك بالفعل..
عادت تسأله: ثيابك ملطخة بالدم، هل أصبت؟
أجابها: هذه ليست دمائي.. إنها دماء شاب أصيب وحملته حتى سيارة الإسعاف..
– أريد أن أجري معك حديثاً حول ما وقع..
– ليس لدي ما أقوله..
قال ، ثم أضاف: في الداخل عشرات الحالات.. هناك موضوعات أهم.
كان المصور يعمل، وبدا له أن الحوار الذي جرى معه قد تم تصويره. وعادت المذيعة الشابة تسأل بعناد: ماذا تعمل؟
فكر قليلاً، عليه أن يتحلّى بالصبر.. وقف، وأجاب:
– موظف..
– هل يمكن أن تسرد علينا ما حدث.
شرح باقتضاب، أعطى وصفاً لما حدث، وتوقف عن الكلام..
– وماذا تفعل هنا.

– جئت للاطمئنان على الشاب، وعلمت أنه في غرفة العمليات..

أشارت المذيعة إلى المصور، فتوقف عن التصوير.. ثم شكرته باهتمام ومضت في طريقها ومشى بصحبتها المصور الذي أنزل الكاميرا عن كتفه، وحملها بيده. مر صديق قديم، وسلم عليه، وإذ لاحظ بقع الدم على ثيابه، أمطره بالأسئلة.. ضاق كمال ذرعاً، وفكر أن من الأسلم له أن يعود إلى زحمة المستشفى، وينتظر وسط الجموع المحتشدة. شق طريقه بصعوبة، وظل رجال الشرطة يحاولون إبعاد الناس دون جدوى، ومن بعيد شاهد طبيباً أمام غرفة العمليات يحيط به الناس، فاندفع نحوه.

كان الطبيب يحاول أن يدخل الطمأنينة على النفوس، كان يحاول أن يفتح أبواباً للأمل..

إنتظر حتى حانت الفرصة، وعندها سأل: ماذا عن الشاب الذي وصل قبل ساعة، الشاب الذي أصيب في كتفه وبطنه، ويلبس فانيلا بيضاء.

نظر الطبيب وحياه بإيماءة من رأسه، وأجاب:

– لا تقلق... ما زال تحت العلاج.. تجرى له عملية تحتاج إلى وقت طويل، يمكنك أن تعود في المساء وتتلقى تقريراً عن حالته الصحية.

شكر الطبيب، وكان لديه أسئلة كثيرة أخرى، لكنه قدر الموقف، وقرر أن يكتفي بهذا القدر، ثم استدار ليخرج من هذا الاكتظاظ، وفوجئ بالمذيعة الشابة والمصور يتابعانه، مشى فلحقته المذيعة ووراءها كان المصور يواصل العمل رفعت نحوه الميكرفون

– قلت لي أنه يلبس فانيلا بيضاء وأنه مصاب في كتفه وبطنه..

هز رأسه بالإيجاب ، وعادت تقول. سنتابع موضوعه، هل يمكن أن نحصل على رقم هاتفك لنطمئنك عليه.

مد يده إلى جيبه، وأخرج بطاقته..

تفحصت البطاقة، وقالت بصوت مسموع: كمال محمد عبد الله، موظف في شركة الاستثمار.

.. هل الجريح طالب؟

بذل جهداً كي يبدو طبيعياً، فقال وهو يحاول الابتعاد: لا أدري..

خرج إلى الساحة، ومن الساحة إلى الشارع.. كان بحاجة إلى هواء..

مرت سيارة أجرة، استوقفها، وقرر أن يعود إلى الحاجز ليستعيد سيارته.

\ \

انفتح الباب، وإذ شاهدته زوجته بثياب ملطخة، ووجه محتقن، وشعر أشعث، عقدت الدهشة لسانها.

دخل ، وألقى بنفسه على المقعد.

لحقت به، ووضعت يدها على رأسه

– هل أنت بخير؟..

– أجل.. أعطيني كأس ماء..

هرولت إلى المطبخ ، وعادت تحمل الماء، وتسأل:

– ما هذا الدم.. وما الذي حدث. هل أنت بخير؟

شرب الكأس دفعة واحدة..

– حملت جريحاً وهذا كل شيء.. سأشرح لك فيما بعد.

اقتربت منه تتفحصه ، فقال

– أريد أن أغتسل وأبدل ثيابي..

مشى نحو الحمام، دخل يغتسل، في حين ذهبت إلى خزانة ملابسه، وأخرجت منها ملابس داخلية وبيجامة ومنشفة.

خرج بعد قليل ، وقد استعاد شيئاً من حيويته.

لاحظ أنها قلقة، مضطربة، لا تدري ماذا تفعل، فهي تنتقل ما بين المطبخ والصالون بلا هدف..

– اطمئني. أنا بخير..

جلس على الكنبة، وقال لها: افتحي الستائر..

فتحت الستائر، دخل الضوء، فقال: افتحي النافذة..

فتحت النافذة، دخلت نسمة رقيقة..

جلست قبالته: ظللت أتصل بك منذ الظهيرة.. هاتفك يرن ولا أحد يجيب.

– بقي في السيارة.....

– وأين هي السيارة؟.

– في التصليح، لقد أصيبت بشظايا قنبلة.

– ما الذي حدث؟

بدأ يشرح لها. كاد يدركه السأم وهو يشرح لها.. لكنه عندما تذكر الشاب الذي أصيب قربه ، بذل جهداً من أجل أن يستعيد الصورة..

– وأنا داخل السيارة شاهدته. كانت القنبلة الدخانية تشتعل وتطلق دخاناً كثيفاً، وصل إليَّ بعضه وأحسست بالاختناق..

قفز الشاب من وراء الإطارات المشتعلة. أتذكر شكله، شاب وسيم، شعره طويل، وله عينان مثل عيني الصقر.

ربما التقت نظراتنا للحظة.. أمسك بالقنبلة المشتعلة وألقى بها نحو الإسرائيليين، أعادها إليهم. لم يكن المكان يبعد أكثر من عشرة أمتار عنهم أحسست أنه بعد ذلك سيخف إلى نجدتي... أحسست أنه جاء لمساعدتي، أدركت أنه سيفتح باب السيارة ويرشدني عما يتعين علي أن أفعل لكي أبتعد..

كنا في تلك اللحظة تحت سقف النار.. وفجأة سمعت أصوات صلية من الرصاص.. لقد فتحوا النار عليه.. أصبح هدفاً قريباً في متناول بنادقهم.

شاهدته يترنح والدم ينزف.. ماذا شعر في تلك اللحظة. هل توجع، هل ذبحت سكاكين الألم شرايينه؟ هل صرخ من أعماقه؟

شاهدته يترنّح ثم يسقط.

وعند ذلك، أية قوّة دبت في أعماقي. أزحت حزام السيارة جانباً، وفتحت الباب وأصوات الطلقات لا تتوقف.

حملته بين ذراعي، وأحسست وأنا أضمه إلى صدري بسخونة دمه، وربما إرتعاشة أطرافه، وربما دقات قلبه. أحسست كما لو أنني أحمل عصفوراً ينبض بسخونة في كفي.

وما أن خرجت من بين الإطارات المشتعلة حتى وجدت عشرات الشبان يساعدونني في حمله.. وسرعان ما جاءت سيارة الإسعاف فصعدت إليها معه، وفي الطريق كان الممرض يحاول تقديم الإسعافات الأولية إليه. كان غائباً عن الوعي ودمه ينزف.. ونجح الممرض في إيقاف النزيف بعد طول عناء.

عندما وصلنا المستشفى أخذوه إلى غرفة العمليات وبقيت في الخارج أنتظر وسط جموع المنتظرين الذين جاءوا للاستفسار عن ذويهم. وعلى الرغم من الازدحام المبالغ به، شعرت بالوحدة والضياع..

ظللت أنتظر وأنتظر، وقال لي الطبيب عد في المساء.

\ \

استمعت إليه، وشاهدت ما جرى في عينيه، وفي انفعالات ملامحه، تخيلت الصورة، وودت لو أنها تقترب وتمسح شعره الذي بدأ يغزوه الشيب.

استمعت إليه، وظلت صامتة. وحتى حين صمت ظلت صامتة.

وحين وقف ظلت صامتة. وحين اقترب من النافذة، وأطل على التلال المزروعة بأشجار الزيتون، وقفت وذهبت إلى المطبخ لإعداد القهوة.

وعندما جاءت بالقهوة كان لا يزال يحدق من النافذة في التلال المقابلة المزروعة بأشجار الزيتون.

– هل اتصل فراس؟

– أخبرني منذ الصباح أنه سينام هناك.

كان يعرف ذلك ، ولكنه رغب في أن يستمع إلى ما يبعث على السكينة والسلام الداخلي. ما الذي جعله يقلق على فراس (ولده الوحيد، طالب في جامعة بير زيت)أهو ما حدث للشاب الذي في مثل عمره والذي حمله هذا الصباح بين ذراعيه؟

أم أن رؤيته لأشجار الزيتون ذكرته بالمهمة التي حملها فراس وزملاؤه على عاتقهم لمساعدة الفلاحين في القرى لقطف ثمار الزيتون؟

القهوة جاهزة.

استدار، وعاد إلى الكنبة.

أشعل سيجارة، ورشف القهوة، داهمه إحساس بعذوبة دفء المنزل، وأحس بتعاطف مع هذه المرأة التي تصحو باكراً وتبالغ في النظافة والترتيب، وتذهب إلى العمل، وتعود لتحضير الطعام، وتمارس أشغالاً شاقة في جلي الأواني، وكنس البيت، وغسيل الملابس، وترتيب الأشياء..

تناولت فنجانها، ورشفت رشفة..

التقت عيناها بعينيه ، فابتسم لها. حاول أن يخفي قلقه وابتسم لها، لعلها تهدأ وتطمئن، ويعود لعينيها بعض الألق.

- علينا أن نتحمل. الانتفاضة ما تزال في بدايتها. قال لها، ليجذبها إلى الحديث ويكسر لحظة من الصمت، ونظر إليها ليقرأ شيئاً في ملامحها، فبدت على وجهها الحيرة، لكنها بعد تفكير قليل، قالت:

– أمس كان فراس يقول لسماح: لا حرية بدون تضحيات.

شرب قهوته، ثم قال:

– أريد أن أنام قليلاً..

– الطعام جاهز. ألا تريد أن تتناول غداءك.

– آكل بعدم النوم.

سبقته إلى الغرفة وهيأت له السرير، غيرت غطاء الوسادة، وأزاحت الأغطية.. وعندما إندس في الفراش ، خرجت وأغلقت الباب.

شم رائحة الوسادة، الغطاء النظيف.. يا لنصاعة روحك أيتها المرأة الطيبة.. رائحة غسيلك، ورائحة الإنسان في أعماقك.

أغمض عينيه، وحاول أن ينام.

ولكنه قبل أن يغفو، أعاد عقله إنتاج العديد من الأحداث المؤلمة.

ما الذي جعل باله ينشغل في ذكريات مضت، تزاحمت الأحداث فحاول أن ينتقي.. أحس بأن عقله الباطن أيضاً يرغب في اجترار الماضي، فحاول أن يفكر بزوجته.. تلك المرأة التي يستبد بها القلق، تذكّر السنوات العشرين الماضية التي قضاها مع هذه المرأة الطيبة.

كان زواجا تقليدياً، مضى في سنواته الأولى بدون انسجام، بل كان مليئا بالسأم، وكاد ينهار، لكن التحول بدأ عندما أنجبت المولود الثاني، المولود الأول كان ذكراً، فراس الذي ولد وترعرع وشب مثل النبات البري والذي امتلك القوة والجرأة والبنية القوية وصار شاباً، رياضي الجسم، رياضي الأخلاق، رياضي العقل، صار من جيل الكمبيوتر والإنترنت.

كانت ولادته عسيرة، والظروف التي ولد بها عسيرة، إذ جاءت الأخبار باستشهاد عمه الفدائي في جنوب لبنان، ولم تمثل ولادته عنصر تجديد ودهشة في حياته وان كانت كذلك في حياة زوجته.

الانعطافة الحادة التي غيرت المجرى، كانت ولادة المولود الثاني، المولود الثاني كان أنثى، وأطلقت عليها زوجته اسم خولة.. ولدت خولة في ظروف صعبة، ابان الاجتياح الإسرائيلي وحصار بيروت. أيام كانت الأخبار تملأ الصحف والتلفزيونات..

ولدت خولة معاقة، متخلفة عقليا، ولها وجه منغولي شاحب. ولادتها على هذا النحو أحدثت صدمة. لم يستطع أن يتعامل مع المسألة بلا اكتراث، شعر آنذاك أن عاطفة الأبوة لا تقل عن عاطفة الأمومة. هزّه موضوع خولة، وحوله الى كائن بائس.

جميلة، زوجته، كانت اكثر قوة، حملت الطفلة الى أطباء في القدس والناصرة وعمان ومصر، وانحسم الأمر بأن الطفلة لن تعيش اكثر من ثلاث سنوات. صبرت جميلة، ووطنت النفس على تحمل ما أراده الله، صبرت وربت الطفلة، واعتنت بها، وتعاملت معها كما لو انها ستعيش أبدا.. وبعد انقضاء السنوات الثلاث، ماتت الطفلة، فقررت جميلة أن تكرس حياتها للعمل الخيري والإنساني، وقامت مع عدد من النساء بتأسيس جمعية للعناية بالمعاقين..

وأصبحت جميلة امرأة مختلفة، واكتشف انه يتحول نحوها، كان يعتقد في البداية أن الأمر لا يعدو كونه شفقة، ولكن مع مرور الأيام، أحس بأنه معجب بقوة الحياة

في روحها، بل انه بدأ يكتشف منجم الطيبة والنزاهة والنقاء في أعماقها، فانجذب إليها من جديد ، وبدأت مرحلة جديدة.

***

أفاق على صوتها، كانت تحاول إيقاظه بلطف.

فتح عينيه. الضوء يغمر الغرفة.هذا يعني انه نام فترة طويلة، وان المساء قد حل.

شعر كما لو انه يصحو من غيبوبة. ثمة صداع خفيف.

قالت له: اضطررت لإيقاظك لكي تشاهد التقرير في التلفزيون..مسح وجهه بكفه، وأزاح الغطاء، وبدأ يستيقظ بالفعل.

- أي تقرير؟؟

- انهم يبثون تقريراً في محطة محلية عن الحادث الذي تعرضت له.

نزل عن السرير، ومشى نحو الحمام ليغسل وجهه..

عادت الى الصالون. غسل وجهه.. بل رشق وجهه بحفنة ماء، ومسحه بالمنشفة، ثم لحق بها.

كان التلفزيون يبث صورته وهو يسأل الطبيب أمام غرفة العمليات، ثم الحوار الذي جرى معه وهو يبتعد.. شعره أشعث ووجهه منفعل، وثيابه ملطخة.

وواصلت المذيعة حديثها عن الشاب الذي تعرض للإصابة. ذكرت اسمه، وبلده، ومهنته، وبعض المعلومات عنه، ثم ظهرت صورته، صورة فوتوغرافية لشاب وسيم بشارب رفيع ، وابتسامة رقيقة، وانتقلت بعد ذلك الى متابعته وهو يخرج ممداً على سرير متحرك من غرفة العمليات، ثم وهو يدخل غرفة العناية الفائقة وقد غاب وجهه في كمامة، وملأت ذراعيه وبطنه الأنابيب المطاطية.

قال الطبيب في التقرير إن العملية ناجحة، لكن المريض لا يزال في غيبوبة، فقد اخترقت رصاصة الكتف، واخترقت رصاصة أخرى الكبد والطحال، وانه سيبقى عدة أيام تحت المراقبة في غرفة العناية الفائقة. وانتهى التقرير بوعد من المذيعة للمشاهدين أن تتابع حالته، وان تجري المزيد من المقابلات مع أصدقائه وذويه.

قالت جميلة: ما زال هناك أمل بإذن الله.

هز رأسه. كان منفعلاً. كان يشعر بان هذا الشاب يعنيه، ويمت الى روحه، وانه من الآن فصاعداً سيعمل شيئاً من اجله.

قال لها: سأذهب الآن الى المستشفى لزيارته ومعرفة حالته الصحية بدقة.

فكرت لحظة، ثم قالت: وأنا سأخرج أيضاً، هناك مسيرة شموع لجمعية الكفيف

في شارع المنارة وكنت على وشك الاعتذار لكي أبقى معك، وما دمت ستخرج سأشارك بالمسيرة إذن.

***

يبدو مستشفى رام الله الحكومي في الليل أقل ازدحاماً ، والحركة أقل توتراً. شرطي الحراسة، يجلس وبيده صحيفة وهذا يعني أنه وجد أخيراً لحظة استراحة، المرضون يتحركون داخل الأقسام بانتظام.الأطباء المناوبون يشربون الشاي في غرفة المدير..

في غرف العناية الفائقة هدوء وصمت. الطبيب المناوب يجلس في غرفة صغيرة عند المدخل، يبدو على وجهه التعب والإرهاق، لعله لا ينام جيداً، فالعمل لا يتوقف.

طرق كمال الباب ودخل ، أشار له الطبيب المناوب بالجلوس، فجلس، لا يجوز إضاعة الوقت، فليدخل إلى الموضوع مباشرة.

– أريد أن أستفسر عن حالة الشاب الذي أصيب في الكبد والطحال .. أظن أن اسمه مصباح.

نظر الطبيب في كشف الأسماء على طاولته ، ثم أجاب:

– حالته مستقرة.. أجرينا له عملية دقيقة استغرقت وقتاً طويلاً، وهو الآن في غرفة الإنعاش. تستطيع أن تلقي عليه نظرة فقط.

ووقف الطبيب، واصطحبه إلى الغرفة.. عند الباب كان ثلاثة شبان وفتاة يقفون ويتحدثون بصوت منخفض.

أوصله الطبيب إلى الغرفة، وعاد إلى مكتبه.

دخل الغرفة ودخل الشبان والفتاة معه.

كانت هناك ممرضة تستبدل كيس (السيروم) الذي يمد الجسد النائم وسط الكمامة والأنابيب المطاطية بالدواء، بينما شاشة مراقبة لنبضه ترسم بيانات منتظمة بلا انقطاع.

بدا مستغرقاً في النوم، في هذه الغرفة التي تغرق في الصمت. أنهت الممرضة عملها، وقالت لهم بصوت هادئ:

– يستحسن أن تتركوه الآن، وغداً إن شاء الله يمكن أن يستيقظ، وقد يتكلم.

نظروا إليها كأنهم يطلبون المزيد، وسألتها الفتاة عن المدة التي سيبقى بها في العناية الفائقة، فأجابتها: لا أدري.. اسألي الطبيب.

خرجت الممرضة، وخرجوا وراءها.. توقفوا في الردهة التي تفصل غرف الأطباء

عن غرف العناية المركزة.

شعر كمال بفضول وبرغبة في أن يتجاذب معهم أطراف الحديث..

فسألهم: هل أنتم رفاقه؟

أجاب أحدهم: نحن رفاقه وإخوانه.. نحن جميعاً ننتمي إلى شبيبة فتح.

وسألته الفتاة: وأنت؟

أجاب: موظف في شركة استثمار.

– هل تعرف مصباح؟

سأل الشاب الأول، فأجاب كمال.

– لا أعرفه، ولكنني كنت هناك، أو على الأصح وجدت نفسي هناك، وقد أصيب أمامي، فحملته وجئت معه بسيارة الإسعاف إلى المستشفى.

قالت الفتاة: قالوا لنا ذلك.. قالوا إن رجلاً كهلاً قد أنقذه، ولكنك تبدو أكثر شباباً.

ضحك كمال، وأحس بأنه يرغب في الحديث معهم..

فعرض عليهم الفكرة على الفور: هل يمكن أن نذهب إلى كافتيريا قريبة نشرب الشاي والقهوة، ثم نعود للاطمئنان عليه؟

تجاوبوا مع الفكرة، فمشى، ومشوا معه، امتلأ بالحيوية، وقال لنفسه إن دماءهم الحارة تسري في عروقي.

***

عاد آخر الليل، فتح الباب ودخل. وجدها لا تزال مستيقظة.

ضمها برفق، وقبل جبينها، وقال معتذراً:

– أتعبتك معي، كان يجب أن تنامي.

– لم أستطع النوم، ظللت قلقة عليك.

جلس على الطرف الآخر من المقعد الطويل

– كيف كانت مسيرة الشموع.

– رائعة، لقد سار مع المسيرة عدد كبير من المواطنين واستمرت ساعتين.. وأنت ماذا عملت؟

– زرت مصباح في المستشفى، وتعرفت هناك على عدد من رفاقه في تنظيم الشبيبة.

– طوال فترة انتظاري لم ينقطع رنين الهاتف.

– لماذا؟

– عرف الناس بالحادث، وبعضهم أبلغ أهلك في جنين. فاتصلوا للاطمئنان عليك.

– وهل اتصل فراس..

– أجل وهو بخير، وهو موجود في قرية كفر نعمة باستضافة الأهالي.

– ليحفظه الله..

– وأثناء غيابي جاءت سماح فلم تجد أحداً ، وتركت ورقة أسفل الباب.

– ما أخبارها؟

– قلقة جداً، في الليل يطلقون من مستوطنة (بسغوت) الرصاص والقذائف على الأحياء المجاورة، ويسبب ذلك لهم الفزع والرعب..

طفلتها تعيش حالة فزع دائم، وأصبحت تبول على نفسها بشكل لا إرادي أثناء النوم..

– لو أنها تأتي وتمضي عندنا بضعة أيام..

– عرضت عليها ذلك، فرفضت أن تترك منزلها مهما كانت الظروف. فتح التلفزيون، وأخذ يبحث عن خيارات.. الانتفاضة وأخبارها في كل المحطات، وتقارير ساخنة من كل مكان، والمظاهرات تعم العواصم.

– العشاء جاهز.. ألا ترغب في تناول الطعام.

– أشعر بالجوع فعلاً.

كان يبدو على وجهها التعب والإجهاد والنعاس، فقال.

– إذهبي للنوم، سأتعشى واقرأ بعض الأوراق.

ذهبت للنوم. ظل جالساً. كان بحاجة لفسحة من التأمل. كان بحاجة لإعادة ترتيب الأشياء. كان بحاجة إلى خلوة مع النفس ليستوعب كل ماجرى.

– ٢ –

يوم جديد. شمس ناعمة رقيقه، وسماء صافية. ذهب إلى عمله، المكاتب شبه خالية، لم يتمكن الموظفون الذين يقطنون في القرى المجاورة من الحضور بسبب إغلاق الطرق.

رن هاتفه كثيراً، وأجاب على المكالمات، وشرب عدداً من فناجين القهوة، ولم يكن ثمة ما يفعله.

جاءت سماح قبل الظهيره مهمومة ومتعبة.

وضعت على طاولته رزمة مفاتيحها، وهاتفها المحمول، وحقيبة يدها، وانفجرت بالبكاء.

تركها تبكي لعل ذلك يريحها قليلاً، كان يعرف أن الوحدة تثخنها بالجراح، وأنها

تتحمل ما لا طاقة لها به. طلب لها فنجان قهوة، وعندما أحضر المراسل القهوة، مسحت دموعها، واعتذرت له، فسحب منديلاً من الورق، وقدمه لها، وقال:

– يستطيع المرء أن يصرخ أمام أصدقائه الحقيقيين. حاولت أن تستعيد تماسكها، وعلى الرغم من كل شيء بدا وجهها وسيماً وشعرها الكستنائي لامعاً.

– جئت أمس للاطمئنان عليك بعدما سمعت الخبر ، ولم أجدكم.

– المهم طمئنيني عن أخبارك وأخبار تمارا. كادت تنفجر مرة أخرى بالبكاء، ولكنها بذلت جهداً ومنعت نفسها.

– تمارا تغيرت. القصف الليلي يرعبها ويخيفها ولا أدري ماذا أفعل..

– وما أخبار فيصل؟

– هذه مشكلتي الأخرى – يمنعوني من زيارته في سجن مجدو، ويمنعونه من الاتصال بنا، وعلمت أنهم في السجن أضربوا عن الطعام وحالتهم الصحية صعبة.

فيصل معتقل في السجون الإسرائيلية منذ تسع سنوات، هي عمر طفلته تمارا التي ولدت بعد شهر من اعتقاله.

فيصل وبقية الأسرى رهائن لدى سلطات الاحتلال على الرغم من محادثات السلام. سماح صمدت أكثر مما يصمد الرجال، كرست وقتها وجهدها خارج العمل من أجل حرية الأسرى..

تظاهرت، وشاركت في المسيرات، ورفعت العرائض إلى لجان حقوق الإنسان، وعملت على إقامة معارض فنية لأشغال الأسرى ولوحاتهم.

– حاولت مؤسسة (مانديلا) تنظيم زيارات لذوي المعتقلين إلى مراكز التحقيق والتوقيف والسجون المركزية، لكن السلطات الإسرائيلية رفضت بسبب ما يسمونه حالة الحرب، الانتفاضة بالنسبة لهم حالة حرب.. وأنا شخصياً قدمت طلباً عبر المحامي إلى إدارة سجن مجدّو لزيارة زوجي غير أنهم رفضوا الطلب.. تعلم يا كمال أن فيصل عانى في السنوات الأخيرة من حساسية في الصدر تحولت إلى ربو، وهو بحاجة لاستعمال البخاخ ثلاث مرات في اليوم، وعلمت أنهم رفضوا تمكينه من شراء الدواء.

اليوم، ذهبت إلى مقر الصليب الأحمر، وقدمت شكوى، ولكن من يسمع؟

كان يتابع انفعالاتها، تقاطيع وجهها، سحابة القلق التي عبرت جبينها، الإحساس بالوحشة في عينيها.

– الشتاء على الأبواب، وفي معتقل مجدّو البرد ينشر العظام، اشتريت له ملابس شتوية دافئة لعلها تمنحه بعض الدفء، وباءت كل محاولاتي لإيصالها بالفشل.

تركها تتكلم، يعرف أن سماح تكر كل ما عندها وهي في حالة إحتقان، وليس من المرغوب فيه أن يقاطعها أحد.. تركها تسترسل وهو يصغي إليها بانتباه.

– يجب أن تفعلوا شيئاً يا كمال من أجل الأسرى.. السلطة الفلسطينية.. الجامعات.. لجان حقوق الانسان.. المجلس التشريعي.. يجب أن تفعلوا شيئا من اجل الإفراج عنهم.

ثم عمدت إلى حقيبتها، فأخرجت علبة سجائرها، وأشعلت سيجارة. قلما تدخن سماح، ربما سيجارة واحدة في النهار، نوع من التنفيخ لا اكثر ولا أقل.

ربما في لحظات الوحدة، لحظات العزلة، لحظات الاغتراب، تحس بحاجة لأن تحرق شيئا مع أعصابها وها هي تفعل ذلك الآن على الرغم من أنها ليست وحيدة.

سحبت نفساً من السيجارة، ونفثت الدخان بحرقة. القهر يكوي قلبها. تهدج صوتها وهي تواصل حديثها:

– أشعر هذه الأيام أنني بحاجة له اكثر من أي وقت مضى.. أنا بحاجة إليه، وطفلتنا بحاجة إليه. إن تمارا بحاجة الى رعاية اكثر حتى تستعيد توازنها، لقد هز القصف الليلي ومنظر الجنازات أعصابها. أصبحت اكثر تعلّقاً بي، واكثر شراسة مع زميلاتها، صارت تميل الى العصيان والتمرد، وتمر بها حالات اكتئاب، وفضلاً عن ذلك كله صارت تبول على نفسها أثناء النوم.. ماذا أفعل؟

شعر بأنها ترغب في أن يتدخل عند هذا الحد، فتكلم، وحاول أن يواسيها، وعلق على موضوع الطفلة بأن الظاهرة أصبحت عامة، وان وزارة التربية يجب أن ترسل مرشدين وأخصائيين الى المدارس، كما أن على الأهالي أن يقوموا بجهود خاصة، وأنهى حديثه:

– اقترح أن نستضيفك هذا اليوم على الغذاء أنت وتمارا..

شكرته ووعدته بتلبية الدعوة يوم الجمعة القادم، ثم نظرت الى ساعتها.. لم يجرؤ على دعوتها للإقامة عندهم، بعيدا عن المستوطنة لانه يعرف انها تحمل مثلاً وقيماً لا تتنازل عنهما، فمهما يكن من أمر لا يجوز للمرء أن يهجر بيته، فإذا ما هجر المرء بيته فإن ذلك يعتبر انتصارا للاقتلاع واليأس.

وقفت، وحملت هاتفها ومفاتيحها، وعلقت حقيبتها على كتفها، وهمت بالرحيل، غير أن المراسل الذي كان قد احضر القهوة، دخل مرتبكا، بل دخل فزعاً وقد اصفر وجهه، ووشى منظره بحلول كارثة.

دخل وقال بصوت عال.. سوف يقصفون رام الله بالطائرات. كان لا بد من لحظة صمت ليستوعب المرء ما قاله..

وهزّه كمال من كتف: ماذا تقول..

أجاب المراسل والخوف باد على وجهه وارتعاشة يديه: الناس يتناقلون الخبر، والمحلات أقفلت أبوابها ، والناس عادوا الى منازلهم والسيارات تتزاحم في الشوارع بحثا عن طريق، والأهالي يذهبون الى المدارس لأخذ أولادهم.

نظرت سماح الى ساعتها ، وانتقلت عدوى الرعب إليها ، فقالت:

– يجب أن اذهب فورا لإحضار تمارا من المدرسة..

– تمهلي..

قال كمال، لكنها لم تتمهل، بل هرولت الى الممر، ولم تنتظر المصعد، فهبطت الدرجات..

لحق كمال بها، قفز الدرجات، ووصل الى حيث تقف سياراتها.

في الشارع كانت حركة ذعر واضحة. سيارات تنطلق وتطلق أبواقها، ومحلات تغلق، وأناس يركضون...

فتح الباب، وجلس الى جانبها..

انطلقت السيارة وسط شارع محموم، وبدا التوتر واضحا في سياقتها وحركاتها.

فتح مذياع السيارة على إذاعة فلسطين، كانت الإذاعة تبث الأناشيد الوطنية.. أجواء حرب، وزاد من قلقها أن قوات الأمن الوطني تنتشر في مجموعات صغيرة بين البنايات..

قوات الأمن الوطني إذن تخلي مواقعها على سبيل الحيطة والحذر.

عند المنارة كانت الطريق مسدودة بالسيارات. زحمة غير مألوفة. اخرج كمال رأسه من نافذة السيارة، وسأل سائقاً على الجانب الآخر في طريق الإياب: ما الذي يجري..

أجاب السائق: تسلل يهود الى رام الله في زي العرب فاكتشفهم الناس والقوا القبض عليهم، وضربوهم حتى الموت، وأعلن الجنرال موفاز انه سيقصف رام الله بالدبابات والطائرات في غضون ساعة رداً على ذلك.

زاد قلقها وتوترها، ونجح شرطة المرور في تحويل السير اليمسارب أخرى، وانطلقت السيارة من جديد، استدارت من ميدان المنارة الى ميدان المغتربين.. ذعر في كل مكان.. والناس يشترون حاجياتهم على عجل ويختفون. يركض أولاد المدارس بحقائبهم على الرصيف.. خافت.. نشف دمها..جف ريقها ، واستدارت عند المنتزه الى الشارع الذي يفضي الى المدرسة.

كانت تمارا واقفة بصحبة معلمتها عند الباب..
توقفت وفتحت الباب ، وركضت نحو ابنتها ، وضمتها الى صدرها ، وعادت بها والدموع تملأ عينيها.
انطلقت السيارة من جديد . الى أين؟ قال كمال : بيتنا اصبح قريبا ، ولدينا قبو في العمارة يصلح ملجأ.. هيا

سماح العنيدة ، حولها الخوف الى امرأة مطيعة ، الشوارع خالية ، واشارات المرور مطفأة . ظلت تسوق بتوتر ، خطر له أن يطلب منها التوقف لكي يقود السيارة بدلا منها ، لكنه لم يفعل .. تركها تنطلق بالسيارة كيفما اتفق..
واخيراً ، وصلوا .. أوقفت السيارة ، وكان عدد من السكان يقفون في الساحة يحدقون في الفضاء..
هبط كمال ، وسأل أحدهم : هل هناك من أخبار؟
قال الرجل : نسمع اصوات طائرات مروحية.
مشى ، لحقت به سماح وابنتها . صعد الدرجات الى الطابق الثاني . فتح الباب بالمفتاح ، من الواضح أن جميلة لم تأت بعد .. دخل ، ودخلتا وراءه.
قال لها : اجلسي واهدئي من روع الطفلة.
جلست ، وأنزلت الحقيبة المدرسية عن كتف ابنتها ، ثم احتضنتنها.
أسرع الى الثلاجة ، واحضر عصيراً.
- علينا أن نتصرف بهدوء .. يتعين علينا ألا نفقد هدوءنا.
أسرع الى الهاتف ، واتصل بجميلة .. ظل الهاتف على الطرف الآخر يرن دون أن يرفع السماعة أحد.
قال : لا أحد يرد في الجمعية.
قالت سماح : جرب مرة أخرى..
من النافذة العريضة ، النافذة الزجاجية ، ظهرت طائرة مروحية .. دارت دورة واسعة ، ثم اختفت بعيداً.
- انهم يلعبون بأعصابنا..
أعاد الاتصال مرة أخرى ، وانتظر بينما الهاتف على الطرف الآخر يرن .. مرت اللحظات كأنها دهر ، ثم سمع صوتها
- جميلة.. هل أنت بخير؟
- أجابت مرتبكة عبر أسلاك الهاتف: أنا موجودة في الطابق الأرضي مع الأولاد

، لا أستطيع أن أتحدث معك كثيراً ، سأنتظر هنا الى أن تتوضح الأمور .. مع السلامة.

– أغلقت السماعة.

قررت أن تبقى مع الأطفال المعاقين، تعلمين أن نظام المدرسة داخلي، والأطفال من محافظات بعيدة.

أحس أن عدوى التوتر قد انتقلت إليه، فحاول أن يبدو طبيعياً..

– هل أعمل ساندويتش لتمارا..

أجابت: أنا سأحضر لها الساندويتش بنفسي..

وقامت الى المطبخ، وتبعتها الطفلة التي تحولت الى كائن ابكم.. لعلها عرفت كل شيء.. لم يعد ما يثير دهشتها.. الأطفال في زمن الحرب يفهمون كل شيء..

وجد نفسه وحيداً في الصالون.. ما العمل؟

وفجأة، دوى انفجار في مكان ما، هز زجاج النافذة. انفجار قريب، أو هكذا بدا.

سرى دبيب الخوف في جسده، عليه أن يبذل جهداً اكبر من اجل ألاّ يرتبك، ووجد أمامه سماح ، والطفلة تتشبث بثيابها وقد تحولت عيناها الى كرتين من زجاج.

وجه سماح شاحب، لم تقل شيئا، ولكن ارتسم فزع ليس له مثيل في صفحة وجهها.

وسقطت قذيفة أخرى، أو صاروخ آخر في مكان ما، ربما المكان نفسه.

أحس بأن القذيفة الثانية تهزه وتوقظه من سبات.

وانطلق لسان سماح وقد خف شحوبها:

– انهم يقصفون المدينة.

لعل القصف قد أيقظها أيضا من سبات.. وقال لنفسه إن التوقع والانتظار اصعب من القصف

- هناك ملجأ اسفل العمارة، ربما يكون من الأسلم النزول إليه

قال، فأجابت سماح على الفور.

– لا داعي لذلك..

– إذن هناك غرفة داخلية اكثر أمنا، يمكنك الذهاب إليها مع تمارا..

بدت سماح متماسكة، بل وقوية، فقالت:

– لا داعي.. هل تصدق.. إنني ارغب في الصعود الى سطح العمارة لمراقبة الطائرات وهي تقصف.

كيف انهد جدار الخو، كيف تكسر زجاج الرعب، كيف اندلعت في الروح قوة

الحياة؟

ويبدو أن الطفلة بدأت هي الاخرى تهدأ..

جاء صوت انفجار ثالث، وفي الوقت نفسه جاء صوت الطائرات المروحية.

اقترب من النافذة، شاهد ثلاث طائرات تحوم في الفضاء المقابل.. هناك، فوق تلة الطيرة..

انظر.. طائرة تقترب فيما تبتعد الاثنتان..

وقفت الطائرة في الفضاء.. وقفت وظلت مراوحها تدور..

كانت قريبة للغاية.. انحنت الى الأمام قليلا، وأطلقت صاروخا. ظهر اللهب الذي يدفع الصاروخ الى الأمام، اندفعت القذيفة نحو الأسفل. بشكل مستقيم، وبعد ثوان قليلة دوى الانفجار، ثم أطلقت وابلا من الصواريخ، وبعد أن أنهت عملها، اعتدلت الى الاتجاه الذي كانت عليه، ثم انطلقت.. وابتعدت، فيما حلّت مكانها طائرة جديدة: إنها طائرة أبا تشي..

توقفت الطائرة في المكان نفسه. وكما فعلت الأولى، انحنت قليلا وأطلقت صواريخها تباعا.. خمسة صواريخ.. ودوت خمسة انفجارات.. ثم اعتدلت، وذهبت بعيدا

ومن ثم ساد الصمت..

– أين القصف؟..

سألته ، وأضافت: أين تتخيل مكان القصف؟

خمن قليلا، وأجاب: أظن انهم يقصفون المقاطعة..

– أين المذياع؟.. ربما نسمع أخبارا..

– من الأفضل أن نفتح التلفزيون، فالمحطات الفضائية مستعدة دائما. كانت محطة الجزيرة تبث عمليات القصف بثا حيا ومباشرا.

– القصف إذن يتركز على مدينة رام الله، ومدينة غزة..

ذكر التلفزيون أن عمليات القصف تركزت على مواقع الأمن الوطني، وطالت منازل المواطنين أيضا.

عبر النافذة كانت طائرة استطلاع بدون صوت، وربما بدون طيار تصور المواقع التي تعرضت للضرب..

هناك وجبة أخرى بعد قليل..

– وبعد قليل عادت الطائرات المروحية، مرت من فوق وادي باطن الهواء، وعبرت الى الجزء الشرقي من المدينة.. لم تعد تشاهد، ولكن دوي القذائف عاد من جديد.

جلس على الكنبة، وجلست هي الأخرى. ذهب القلق وعاد الهدوء.. لم يعد مرتبكا، ولم تعد خائفة.. كانت الطفلة تتصرف بهدوء، وتأكل طعامها دون أن يبدو ما يدل على فزعها.

عادت سماح الى شخصيتها المعهودة ، مدافعة شرسة عن الحرية، قائدة مسيرات احتجاج، ومحرضة من اجل إطلاق الأسرى، وامرأة علمتها الظروف أن تواجه اليأس بالأمل، والإحباط بالتفاؤل.

توقف القصف. وسادت فترة من الصمت، ظل جهاز التلفزيون ينقل الصور الحية للحرائق.

طال الصمت، وأنهت الطفلة طعامها، وطلبت أن تذهب الى الحمام.. وعندما عادت الطفلة، قالت سماح: ما رأيك أن نخرج الى الشوارع..

استحسن الفكرة، لكنه نظر الى الطفلة، فأضافت سماح:

– نأخذها معنا، وهذا يجعلها تخرج من خوفها.

فوقف دون تردد، وقال: هيا..

عند باب العمارة، كان السكان قد خرجوا.. منهم من ركب سيارته ومنهم من يتهيأ لذلك..

ركب الى جانبها، فيما جلست الطفلة في المقعد الخلفي.. انحلت عقدة لسانها وبدأت تسأل..

أجاب على بعض أسئلتها، وأجابت سماح عن الأسئلة الأخرى.. أسئلة ناضجة، عن الطائرات، واليهود والإصابات المحتملة.

بدأت الشوارع تكتظ، الناس يخرجون الى الشوارع، وفي ميدان المنارة كان هناك تجمع هائل، وهتافات عالية، وسرعان ما تحول التجمع الى مسيرة نحو الأهداف التي تعرضت للدمار.

حمل الطفلة على كتفيه، ومشى الى جانب سماح، واندمجا في المظاهرة بينما الأعلام ترفرف فوق الرؤوس.

– ٣ –

للأيام إيقاع واحد، الأيام تشبه بعضها البعض، مواجهات وجرحى، شهداء وجنازات، اشتباكات ليلية وقصف من الدبابات، وأجهزة التلفزيون تبث التقارير والأغاني الحماسية، وأحاديث الناس تتزايد عن إغلاق الطرق، وتجريف الحقول، وقطع الأشجار المثمرة، وإغلاق مطار غزة. كانا – كمال وجميلة – يجلسان في

الصالون..
ومن النافذة العريضة تبدو التلة المكسوة بأشجار الزيتون..
كان للمشهد مذاق خاص في مثل هذا الصباح ، وهو يحتسي فنجان القهوة معها، ويفرش بساط الألفة.
حدث نفسه: اشتقت لساعة هدوء وسكينة.
اشتقت لرؤية عصفور يفرد جناحيه ويحلق في الفضاء..
اشتقت لرؤية فتى يمسك بيد صديقته، ويحنوان على بعضهما البعض مثل طيور الحب في شارع المصيون.
اشتقت لأمسية طرية مع الأصحاب في منتزه الخزامى وسط الأراجيل ذات الرائحة العطرة.
اشتقت لقصيدة غزل يقولها شاعر واعد في بيت الشعر.
اشتقت للحظة كسل أحل بها الكلمات المتقاطعة في جريدة عتيقة.
اشتقت لجلسة عائلية في البراري وسط دخان الشواء.
اشتقت لحمل باقة ورد إلى حفل زفاف.
اشتقت لصوت طلبة وغناء ومكبر صوت.
اشتقت لقليل من فرح الصباح، ولشيء من عذوبة المساء.
– بماذا تفكر؟
نظر إليها، لقد أمضت ليلتها في القسم الداخلي مع الأطفال المعاقين، شوجاءت في الصباح بوجه متعب وملامح مشوشة.
– وأنت بماذا تفكرين؟
– أفكر بإعادة الأولاد إلى ذويهم ريثما تستقر الأحوال.. وجودهم في المكان خطر عليهم، المكان قريب من المستوطنة، ولا أحد يعلم ماذا يخبئ الغد.

رنّ جرس الهاتف، رفعت السماعة، فهتفت من أعماقها:
– فراس. كيف حالك يا حبيبي؟
عادت لها الحيوية، وولدت في وجهها المتعب حزمة شمس.
– هل تنام جيداً.. هل تأكل جيداً.. متى تعود؟
ظلت تكلمه بلهفة، سألته عن تفاصيل التفاصيل، واضطر كمال أن يأخذ السماعة من يدها،.. تحدث مع ولده باقتضاب، وسأله أسئلة مختصرة ثم أعاد لها السماعة، ودخل غرفته ليستبدل ملابسه.

لبس، ومشط شعره، وبحث هنا وهناك عن ساعة يده، وعاد فوجدها قد فرغت من المكالمة.

– هل ستخرج؟

– نعم..

– كيف ستذهب.. اتصل مع أحد معارفك أو اطلب سيارة أجرة.

– لا داعي، سأتمشى حتى أول الشارع، ثم اركب سيارة عمومية.

***

ذهب الى مكتبه. تصفح الجرائد. مجازر وشهداء وصور الجنازات وأخبار محلية عن الأضرار الاقتصادية، والعزل، وإغلاق الطرق، والصراع مع المستوطنين.

قراءة الجرائد تزيد الأمور تعقيداً.. فكر في أن يفتح المذياع ثم ألغى الفكرة. رن جرس الهاتف.. أصدقاء عاديون، وعواطف تقليدية.

متى تنكسر رتابة الأيام.. في الماضي كان يسكن الشعارات، أيام الجامعة التحق بالتنظيم في المقاومة، وأدى خدمات، ونفذ مهمات عديدة، وألقي القبض عليه، واوقف في سجون الاحتلال توقيفاً إداريا لمدة ستة اشهر، ثم افرج عنه.

وعندما خرج اختلف مع تنظيمه، وفضل أن يبقى مستقلاً، ثم انصرف الى البحث والدراسة، شارك في ندوات علمية، وندوات ثقافية، وندوات سياسية، وكتب المقالة في الصحف، ثم أدركه السأم.

ظل يسمع نشرات الأخبار، ويهتم بالأحداث، والحديث عن التسوية والمفاوضات، واقنع نفسه في نهاية الأمر، بأن يأخذ دور المتفرج. يقرأ ويتفرج . يسمع ويتفرج. يسهر مع الأصدقاء ويتفرج، يذهب إلى الأعراس ويتفرج، يشارك في التعازي ويتفرج.

اقنع نفسه بأنه مسير لا مخيّر، وانه لا يستطيع أن يكون عنصراً في صنع القرار.

تزمل في ثياب الموظفين، وترك أمور حياته تسير كقارب يقلع على غير هدى.

ها هي الأحداث تهزه من جديد، يحاول أن يتفرج فلا يستطيع، يبحث عن دور فلا يجد، ينتظر الزلازل وسقوط النيازك والشهب ولا يعرف متى ينتهي هذا الانتظار.

الأحداث وضعته أمام نفسه، الأحداث جمعت مزقه، وأعادت شظاياه الى بعضها البعض.

كان دائما يحب الحرية لبلاده وشعبه، أحيانا كان يرى في سماح دوره المفقود،

وكان يحسدها على حماسها حيويتها وإصرارها على المبادرة، وكان يصمت عندما تحاول استفزازه ودفعه للعودة الى العمل التنظيمي والسياسي، حتى الأصدقاء القدامى عادوا من جديد يحاولون معه، أو على الأقل جذبه الى صفوف المناصرين.

***

يحلو له أن يخلو بنفسه، ويتأمل..

التأمل شكل من أشكال العبادة.

التأمل رياضة روحية تحقق الصفاء

التأمل والتفكير بالأشياء مرحلة جديدة دخل فيها، لعلها تخرجه من حالة المتفرج.. ما الذي يمكن عمله وسط حيتان القوى السياسية والاجتماعية التي بدأت تتشكل. لا مكان للفرد إذا لم يكن ضمن تجمع يحميه ويدفعه، العصافير لا تستطيع العيش خارج سربها، وهو يرغب أن يظل خارج السرب، يعاند ويصر على البقاء خارج السرب. دروب السياسة وعرة، وفي أعماق السياسي إنسان وذئب، وهو يبحث عن النقاء والنزاهة، وفي عقله الباطن ما زال يتمسك بالمثل والقيم التي قرأها في تجارب الثورات، ولعله في حقيقته ما زال ينتمي الى أفكار مرحلة الحرب الباردة، يشعر بأن قطار الزمن قد مرّ سريعاً وتجاوزه، الأجيال الجديدة، ومنها فراس وسماح يتعاطون مع الواقعية السياسية، وهو لا يستطيع كما يبدو أن يتكيف، يشاهد ويقرأ الأخبار ، المفاوضات والاتفاقيات وتعثرها، وكل ما يجري لا يشد انتباهه، يغرق في تفاصيل الحياة اليومية، ويسلم بالأقدار، ويترك الآخرين يفعلون ما يحلو لهم، يستحسن أو يستهجن ، ويدركه السأم.

***

عندما وجد نفسه وسط الحريق، على بوابة رام الله والبيرة، عند فندق السيتي إن، وسقوط الشاب الجريح أمامه، أحس أن الأقدار تضعه من جديد أمام مسؤولياته كمواطن..

وسط الحريق، شعر بأنه يرغب في أن يطلق صرخته الإنسانية.. هل استيقظ في أعماقه وحيد القرن غير المدجن.. لماذا تثور الأسود في أقفاصها ذات مساء في حدائق الحيوانات، لعلها تشتاق الى الغابات والينابيع والمدى!!..

هل عدت تجتر الشعارات التي كنت تسكنها، هل تستيقظ في أعماقك الرغبة في التنظير والخطابة والأحاديث النظرية.

في الماضي كنت تنقسم الى شخصين، واحد يبقى أمام جميلة في الصالون يتفرج

على برامج التلفزيون، والآخر يمشي في شوارع وأزقة الاغتراب، ولا يعود الا في آخر الليل.

***

مسيرة حاشدة. الآلاف يتدافعون، والهتافات تنطلق من أعماق الحناجر..
رجال، وشبان، ونساء، وأولاد، وأعلام خضراء، وأخرى حمراء..
كل تنظيم يشهر علمه ليقول انه موجود.
عشرات المصورين يحملون الكاميرات، ويتحركون هنا وهناك..
يتسابقون على اخذ المشاهد من مختلف الزوايا.
مسيرة حاشدة تتجه نحو الحاجز الإسرائيلي..
مسيرة تتقدمها الشبيبة، وحملة المقاليع..
وجد نفسه في الصفوف الأولى، دفعته الموجات أو تعمد أن يندفع الى الأمام، كان من حوله رجال ملثمون يوزعون أعلام تنظيم على الفتيان.
حاول أحدهم أن يعطيه العلم، فرفض، وقال مخاطبا نفسه: لفلسطين علم واحد.
الشبيبة في المقدمة كانت تندفع تحت راية العلم الفلسطيني، التنظيمات تحمل راياتها في الخلف.. ويدلي المسؤولون فيها بالتصريحات أمام وسائل الإعلام في الخلف، وعلى الأرصفة..
اقتربت المسيرة من الحاجز، وظهر فندق السيتي إن، وبدأ رمي الحجارة وبدأ الجنود يطلقون الرصاص المطاطي وقنابل الغاز.
تراجع البعض الى الخلف، فيما استمرت عناصر الشبيبة في التقدم.
ظل مشدوداً إلى الأمام، لم يستلل الى قلبه الخوف، كان مدفوعاً بغريزة الفراشة نحو الضوء.
واستمرت عناصر الشبيبة في الهجوم، ظهرت هياكل السيارات والبراميل وإطارات النار المشتعلة. أصيب أطفال وشبان إصابات مباشرة، تدافع زملاؤهم وحملوهم نحو سيارات الإسعاف.
ظل يتقدم... كان ثمة امرأة فلاحة تحمل على رأسها الذخيرة وتتقدم، وعندما وصلت مرمى النيران أنزلت السطل وأفرغته على الأرض، حجارة بأحجام متوسطة، اقترب الشبان واخذوا الحجارة، انحنى كمال والتقط بعض الحجارة، واختلط مع عناصر الشبيبة، ووصل منطقة المتاريس، كان مندفعاً بقوة لا يدرك كنهها..
رفع الحجر الى أعلى، وألقاه بكل ما أوتي من عزيمة نحو سيارات الجيب

العسكرية التي يتمترس الجنود وراءها، والتقط الحجر الثاني وسدد هذه المرة بتركيز اشد، فأصاب الشبك الذي يحمي زجاج السيارة الأمامي..

وفجأة، كما في أول مرة، سقطت قنبلة دخانية، فانحنى، كما انحنى الشاب، والتقطها، وأعادها إليهم.

وانتظر زخة رصاص، لكنهم لم يفعلوا.. انتظر أن تأتي زخة رصاص وتصيب رأسه أو كتفه أو صدره، فيسقط على الأرض، ويأتي الشبان ليحملوه إلى سيارة الإسعاف..

لكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فاقترب بعض الشبان منه وقد هالهم إندفاعه غير الحذر، وشدوه إلى الخلف..

قال أحدهم: يا عم عد إلى الوراء قليلاً لقد أصبحت في مرماهم تماماً..

عند ذلك غمرت المكان سحابة بيضاء، ووجد نفسه وسط سديم حجب حوله الرؤية، وشعر بالاختناق، وسعل سعالاً حاداً..

جذبه الشباب إلى الوراء، ثم حملوه وركضوا به إلى الخلف..

في عربة الإسعاف، قدموا له العلاج، ووضعوا فوق أنفه كمامة الأوكسجين..

ارتاح، عاد يتنفس بانتظام، إلى جانبه الممرض، وعدد من الشبان، ومجموعة من مصوري التلفزيون، ووقعت عيناه على تلك الصبية التي كانت قد أجرت معه حديثاً في المستشفى.

رفع الممرض الكمامة وسأله: هل أنت بخير؟

كان يشعر بالوهن، لقد استنشق كمية كبيرة من الغاز.

– ٤ –

١– الحاجز

سيارات جيب عسكرية. جنود إسرائيليون يعتمرون الخوذ العسكرية، ويحملون بنادق ركب عليها مناظير. على أسطح البنايات جنود يجلسون وراء الرشاشات الثقيلة، ويراقبون من وراء أكياس الرمل، ويتأهبون.

من غرف الفندق المحتل، يصوب جنود آخرون بنادقهم، قناصة يختارون أهدافهم بعناية. وفوق التلال دبابات تصوب سبطاناتها نحو البيوت.

الساحة التي تفصل سيارات الجيب عن المتاريس وإطارات المطاط مفروشة بالحجارة، الحجارة التي يلقيها الشبان، فتتناثر هنا وهناك ، وتتكدس فوق بعضها البعض.

المتاريس، هياكل سيارات، إطارات مشتعلة، ودخان.

ومقابل المتاريس يتجمع الشبان من أعمار مختلفة.. أطفال، فتيان، شبيبة، ذكور وإناث، حملة مقاليع، دماء حارة تسري في العروق، راية فلسطين ترفرف وراءهم وحولهم، بعضهم يلف الكوفية حول رقبته، وبعضهم الآخر يتأهب مثلما يفعل ملاكم في الحلبة.

وفجأة، يبدأ أحدهم المواجهة، حجر من مقلاع، أو حجر من يد شابة تتفجر عروقها بالغضب.

وبالمقابل، يبدأ أولاً إطلاق قنابل الغاز، ثم الطلقات المطاطية، وتسخن المواجهة بإصابات متفرقة هنا وهناك، وسرعان ما تقترب سيارة الإسعاف إلى أقرب نقطة ممكنة، وقد تتعرض سيارة الإسعاف لإطلاق النار، ولكن السائق والممرض تعوّدا على الجسارة..

وعندما تحمى المواجهة، وتبلغ الذروة، يبدأ القناصة بالعمل..

وراء الشبيبة، وبعيداً عن مرمى النيران يتجمع ممثلو التنظيمات، ووجهاء المظاهرات، وحملة الإعلام المختلفة التي تشي بهوية التنظيمات المشاركة، يرقبون، ويتفقدون الجرحى، وقليل منهم يظفر بمقابلة تلفزيونية يدلي فيها بشعارات عنترية... ولم لا.. ألا يتحدث من أرض المعركة؟!!

وخلف هذا التجمع، بعيداً جداً عن مرمى النيران، يقيم الباعة المتجولون بسطاتهم. باعة فلافل، أيس كريم، عرانيس الذرة، وأحدهم أقام بسطة شواء للكباب.

صالح الطاهر، صاحب بسطة الشواء، أكثر بسطة وجدت رواجاً، أصبح من الشخصيات المعروفة خلف الحاجز، ومن المواقع التي يتوقف عندها الشبيبة والكبار والصغار..

يعلق اللحم بالكلاليب، ويفرد على الطاولة البصل والبقدونس، والملح والفلفل الأسود، والبهارات المنوعة، والخبز البلدي.

وعلى جانب آخر منقل الفحم الذي يبقى مشتعلاً، وفوقه أسياخ اللحمة، بينما الدخان، والرائحة الشهية ينطلقان بلا حرج.

يتوقف الجياع، رماة الحجارة، أو المتفرجون، فإلى جانب خطر الموت تندفع غريزة حب الحياة وسد الرمق.

وصالح الطاهر يربح القليل، وأسعاره رخيصة، ونفسه طيب، ويتصف بالود، وخفة دم أبناء البلد، وعلى الرغم من تراجيديا الموقف، يجد الفرصة لدعابة بريئة، أو نكتة مالحة عن اليهود.

وذات نهار، جاءه الشاب مصباح، الذي يلبس بنطلون جينز، وفانيلا بيضاء، وقد حلق ذقنه، ومشط شعره الطويل..

توقف عنده، وقال: يا صالح جهز لي نصف كيلو كباب ، سأذهب إلى الحاجز وأعود إليك بعد ساعة.

ومد يده إلى جيبه، وأخرج قطعة النقود، فرفض صالح الطاهر أن يأخذ النقود منه الآن وقال إنه سيأخذ النقود فيما بعد.

ومرت ساعة، وساعة أخرى دون أن يأتي مصباح..

وصالح الطاهر، الرجل النزيه، خص مصباح بأحسن قطعة لحم عنده، فرمها، وخلطها بالبصل الناعم والبقدونس، ثم شواها على السيخ، شواها على مهل، وحرص على أن تنضج على فحم بلا لهب، فاللهب يحرق اللحمة، ويجعل طعمها مراً، وبعد أن نضجت، سحبها من الأسياخ على رغيف ساخن، وحتى لا تبرد، وضع فوقها رغيفاً آخر ولفّها بورقة جريدة بإنتظار عودة مصباح..

ومرت ساعة ثالثة، وبدأ الشباب يعودون، ومصباح لم يعد.. بدأ صالح الطاهر يقلق، استوقف شباب يحملون المقاليع وسألهم عن مصباح، فقالوا له إن مصباح قد أصيب بعيارات ناريه، وأنه نقل إلى المستشفى..

داهمه إذ ذاك هم ثقيل، وقرر أن يغلق البسطة ويذهب إلى المسشفى للاطمئنان على مصباح، ولم ينس أن يحمل معه لحمة الكباب الملفوفة في جريدة..

أوقف سيارة عمومية، وركب حتى ساحة المنارة، ومن هناك مشى على عجل نحو المستشفى الحكومي.

قال مخاطباً نفسه: سأطعم مصباح الكباب بيدي، ولن آخذ منه ثمنها، وسأعمل له كل يوم نصف كيلو كباب أو كفتة أو حتى قلاية بندورة.

قال مخاطباً نفسه إن مصباح فتى شجاع ، ويستحق المحبة شفاه الله.

وصل المستشفى، وسأل هنا وهناك، سأل موظف الاستعلامات، وسأل التمرجي، وسأل البواب، وسأل الممرضات، ووصل في نهاية الأمر إلى الطبيب المناوب..

وقال له الطبيب إن مصباح في غرفة العناية بعد العملية الجراحية، ولا يمكن زيارته.

فقال له صالح: أرجو أن تعطيه هذا الطعام وقل له إنه هدية من صالح الطاهر.

نظر إليه الطبيب بإشفاق، وأجابه: إن مصباح في غيبوبة قد تستغرق بضعة أيام، ونحن نضع له مصلاً يغذيه حتى يشفى..

أطرق صالح، وأحس برغبة في البكاء، وخرج من المستشفى كسيراً ومحزوناً.

مشى إلى ميدان المنارة ولفة الكباب في يده، ركب سيارة عمومية حتى البسطة القريبة من الحاجز..

كان الشارع خالياً، والوقت يشرف على الغروب..

من بعيد كان الحاجز فارغاً، وبقايا العجلات المطاطية تطلق بقايا الدخان.

وجد نفسه وحيداً. جلس على الكرسي، ووضع لفّة اللحمة أمامه.. كان يشعر بالقهر والجوع في آن..

خطر له أن يفتح الجريدة، ويأكل الكباب..

لكنه تردد..

في تلك اللحظة الرعناء، أطلقت دبابة تتمركز على تلة (بيت إيل) قذيفة.. قذيفة نزقة..عشوائية.. طائشة..

سقطت بالضبط أمام بسطة صالح الطاهر..

إنفجرت وحولت كل شيء إلى جحيم.

هزّت أركان المكان، وتردد صداها في أطراف المدينة..

وأصبح صالح الطاهر أثراً بعد عين.

وتحوّل الكباب إلى لقمة مغموسة بالدماء.

لقمة لم يأكلها مصباح، ولم يأكلها صالح الطاهر.

– ٥ –

أمام النافذة الزجاجية الواسعة والتي تحيط بإطرافها ستارة زرقاء يجلس على كرسيه المفضل، ويتأمل الوادي والتلال التي تمتد حتى آخر مدى تدركه العين..

سئم من نشرات الأخبار.

سئم من التصريحات والتصريحات المضادة..

سئم منظر الدخان، الحرائق، الجرحى، الجثث الممزقة، الأشجار المقتلعة، الأراضي المجروفة، الأغاني الحماسية.

صقيع دولي.. الرأي العام ضعيف الذاكرة.. الحرية تمتطي ظهر جواد شاحب.. الرياح تهب على مالك الحزين من جميع الاتجاهات..

الرياح الهوجاء لا تجيد القراءة.

أنا الغريق فما خوفي من البلل..

تداعيات.. تداعيات.

ماذا يدور في رأسك المتعب؟

أنت وحدك لن تدير دفة الأشياء..
لم يعد في الفضاء طيور تحلق، الفضاء مكبل، والهواء ساكن كأنه يخضع لقرار منع التجول.
ارفعوا أيديكم عن روحي..
طرق الباب، ثم دار المفتاح في اكرة الباب..
دخلت جميلة، وبيدها كيس يحتوي على خبز وعصير.
– مساء الخير..
الوقت بعد الثانية ظهراً.
– متى عدت..
أجابها: منذ ساعة.
خلعت حذاءها، وأزاحت الايشارب عن عنقها، وجلست.
– أمضيت النهار في الاتصال مع أهالي الأولاد..
تنهدت وأضافت: يجب أن يعود جميع الأطفال إلى بيوت ذويهم إلى أن تستقر الأحوال.
كان ينظر إلى التلال بلا حماس، كان يتأمل وهو مأزوم.

– هل تناولت غداءك..
لم يقل شيئاً، قامت وتوجهت إلى المطبخ.
ما الذي يدور في هذا الرأس المتعب، أي حزن يسكن في جسدك القديم؟!!
تداعيات.. تداعيات، وأسئلة عن المصير والعدالة ومنجزات الإنسانية..
أيها الحكيم.. أضئ مصباحك في النهار، فالنهار أشد حلكة من الليل..
– الغداء جاهز..
لم يكن يشعر بالجوع، ولكنه لم يشأ أن يتركها على المائدة وحيدة.
جلس قبالتها، وجهها داكن. محتقن. وجهها المتعب يشي بمتاعب لا تحصى ، لكنها قليلة الشكوى..
تتألم على طريقتها الخاصة، عاشت طويلاً مع المعاقين، مع المتخلفين عقلياً، مع الصم والبكم، مع المصابين بالشلل الكلي أو الجزئي.. مع الأكفاء والكفيفات.
وتعلمت الصبر والمثابرة على الصبر..
كان يحس بوحدتها وعزلتها واغترابها، لكنها لم ترغب يوماً في أن يشعر بذلك.

كانت تحاول دائماً أن تعتني بشؤونه، أن تسنده وترمم تداعياته.
رنّ جرس الباب فجأة، وأعقبه طرق متواصل لحوح.
أضاء وجهها، وتغيرت ملامحها، وهتفت:
– إنه فراس.. فراس الذي يفعل ذلك.
أسرعت إلى الباب، وفتحته.. دخل فراس يحمل حقيبته.
دخل أشعث أغبر، متسخ الملابس، وقد نبت شعر ذقنه، واخشوشنت كفاه..
ضمته بحنو، ومشى معها إلى المطبخ، تعانق مع أبيه وجلس على المائدة.
– أكاد أتضور جوعاً.
سكبت له الطعام في الصحن، وأحضرت ملعقة..
أكل بشراهة، وهو يتحدث عن تجربته في قطف الزيتون..
هذا الجيل – حدث كمال نفسه – جيل يعرف ما يريد، ويمشي إلى هدفه بخطى ثابتة.
وبعد الغداء انتقلوا إلى الصالون..
ظلت الأم تسأل إبنها عن الأيام التي قضاها في القرى بين أدغال الزيتون.
حكى فراس قليلاً، وقال إنه متعب، وإنه يرغب في حمام ساخن وغفوة، وبعد أن يستيقظ سيقول لها كل شيء.

***

إنهمكت في تدبير شؤون فراس، وابتعدت عنه..
دخل فراس إلى الحمام، فيما أخذت حقيبته إلى غرفة الغسيل..
ظل جالساً أمام المشهد، أمام الطبيعة، أمام التلال المزروعة بأشجار الزيتون، ظل جالساً يقلق ذلك القلق الوجودي المشروع – يطرح على نفسه أسئلة المستقبل، وأسئلة المصير.
سئم من الصمت والتأمل، فبحث في مكتبته عن كتاب ما يمضي به الوقت إلى أن يحل المساء.
فتح صفحات الكتاب، وحاول أن يقرأ.. ظل ينظر إلى السطور ويقرأ دون أن يستوعب..
كانت أصواتهما تأتيه من الداخل، يتحدث الولد إلى أمه، وتسرد له الأم وقائع ما جرى..
حدس أنها تحدثه عما وقع له عند الحاجز، وعن السيارة التي أصيبت بأضرار،

وعمليات القصف بطائرات الأباتشي.

حدس أنها تصف وتبالغ في الوصف، وكان حدسه صحيحاً، فقد جاء فراس إليه وهو يرتدي روب الحمّام..

– لم أعرف ما جرى لك يا أبي إلا الآن.. لماذا أخفيتم علي ما حدث؟

– لا تقلق كل شيء على ما يرام..

– هل أنت بخير حقاً؟

– أجل..

إنحنى فراس، وقبله، فداهمه إحساس عاطفي طالما شعر به عندما كان فراس طفلاً يحبو..

عاد فراس لمتابعة شؤونه، فانصرف إلى كتابه من جديد..

عاد إلى القراءة العسيرة، فأدركه الملل..

أحسّ بنعاس مفاجئ، فقام، وذهب إلى غرفته، ونام.

***

عندما أفاق، وفتح عينيه، كان فراس يملأ البيت صخباً، يضحك ويتكلم.. وبعد قليل إنتبه إلى أنه يتحدث في الهاتف..

ومن سياق الكلام، عرف أنه يتحدث مع نوال، زميلته في الجامعة..

أزاح الغطاء جانباً، وقام من فراشه، دس قدميه في الحذاء، وغسل وجهه..

كان قد نام بملابسه، خرج إلى الصالون.. تثاءب وفرك عينيه.

أنهى فراس المكالمة، وعانقه من جديد..

ثم وضع سماعة الهاتف مكانها، وعاد يروي لأمه ما انقطع من حديث بسبب المكالمة..

-عندما وصلنا استقبلنا الفلاحون بالترحاب، بعض الطلاب كان معروفاً لديهم إذ سبق للطلبة أن شاركوا في قطف زيتون موسم مضى..

العام الماضي كان الموسم شحيحاً وحبات الزيتون على الأغصان كانت قليلة وضامرة، أما هذا العام فالزيتون الأخضر اليانع يطل من بين الأوراق، ولكثرته تميل الأغصان إلى الأسفل.

أدغال من أشجار الزيتون تحتاج إلى جهد شهر كامل.. أشجار زيتون رومية تغرز جذورها في عمق الأرض منذ مئات السنين، سيقانها ضخمة، وأغصانها مكسوة بلحاء جاف.. وأغصانها دائمة الخضرة تضفي عليها سحراً ومهابة وجمالاً.

من بعيد تبدو الشجرة مثل امرأة تنشر تحت الشمس شعرها، مثل امرأة استحمت واكتحلت، وارتدت ثوبها، وأصبحت مهيأة للخروج والسهر.

انتشر الطلبة هنا وهناك، وتحت شجرة رومية قديمة مر من أمامها الزمن، وشهدت نوائب الدهر، وجدتني ونوال بصحبة عائلة أبو طالب نعمل في جني الثمار.. بالمناسبة عائلة أبو طالب مكونه منه وهو شيخ يمتلك روحاً شابه، ومن زوجته الحاجة زكية، ومن بغله النشيط ذي اللون البني، والذي يطلق عليه لقب عنبر.. تلك هي عائلته الحقيقية بعد أن كبر الأولاد وتزوجوا وهاجروا إلى المدينة.

عنبر الوفي أفضل من الولد العاق، هكذا كان يردد أبو طالب الذي ينوء تحت ثقل التجارب.

توقف فراس عن الحديث قليلاً ورشف رشفة من فنجان قهوة أمامه، وتابع القول:

– كانت ثمار الزيتون مغسولة من مطر أيام خلت.. ثمار يسكنها الزيت مثلما يسكن الحليب ضروع الأبقار.

شعرت بمتعة العمل وأنا أقطف ثمار الزيتون، غمرت أوراقها رأسي وانتابني إحساس بالتوحد مع هذه الشجرة المباركة.

وكانت نوال تعمل بالقرب مني ، ولتمضية الوقت كانت تسألني من وراء الأغصان عن الجامعة ، وفريق كرة السلة ، وانتخابات اللجنة الاجتماعية.

وكان حديثنا يتشعب، ويتطرق إلى نميمة بيضاء أو استغابة حلوة. عندما حل الظلام، عدنا إلى القرية، أعدوا لنا مكاناً للنوم..

الشباب في مدرسة الذكور، والبنات في مدرسة الإناث.

أما العم أبو طالب، فقد حمل أكياس الزيتون على ظهر عربة يجرها البغل النشيط عنبر، ويمم شطر قرية دير عمّار حيث المعصرة..

***

– تركهما يتحدثان وخرج..

– لا تتأخر يا أبي.. أريد أن أجلس معك الليلة، وغداً سأعود إلى حقول الزيتون.

هزّ رأسه، وخرج.

في الليل يكون مستشفى رام الله أقل إكتظاظاً.

عمال النظافة يعملون في الردهات.

قطع الممر الطويل وهو يشم رائحة مواد التعقيم.

سأل موظف الاستعلامات عن مصباح.

- ما زال في غرفة العناية الفائقة.

صعد الدرجات.جرحى يمشون على العكاكيز ويختلطون بالزوار في قاعة المدخل الخلفي. ثم غرف مكتظة بباقات الورد. على الجدران ملصقات وصور لمحمد الدّرة، أبو جهاد، وفتى يحمل العلم. سأل ممرضة عن غرفة العناية الفائقة، فأرشدته. كان الباب مغلقاً، وكان ثمة نافذة زجاجية يمكن منها إلقاء نظرة.

نظر من وراء الزجاج، كانت ستائر حول السرير الوحيد في الغرفة تحجب رؤية المريض.

حاول دفع الباب، جاء ممرض من غرفة مجاورة، وقال:

– الزيارة ممنوعة.

– كيف حالته؟

– الوضع مستقر.. الله يشفيه.

فكر قليلاً فيما يتعين عليه أن يفعل.

أقبلت نحوه صبيّة، عرف ملامحها.. بالتأكيد أنها الفتاة التي قابلها بالأمس.

سلمت عليه..

– اسمي آمنة.. كيف حالك؟

– أهلا.. جئت للاطمئنان على مصباح. عبرت ملامحها سحابة، وقالت:

– ما زال في الغيبوبة..

– أردت أن ألقي عليه نظرة.

نظرت آمنة إلى الممرض نظرة رجاء، فهز الممرض رأسه وفتح الباب.

دخلت، ودخل وراءها..

أزاحت الستارة.

كان ينام على السرير، ويستغرق في النوم.جسده مغطى بالشرشف، ووجهه بكمّامة للتنفس.

دقق النظر إليه. وجه مكدود مليء بالجراح.أين الوجه الذي كان يشتعل بالغضب.الوجه المحتقن الخارج من وراء اللهب والدخان.

كان غافياً، ولكنه يفتح عينيه على سعتهما.

دقق النظر في عينيه. لعله كان يبحث عن ومضة، الومضة نفسها التي تشبه التماعة عين الصقر وهو يشرع في الطيران.

بحث عن كلمات يقولها، فلم يجد، لكن دمعة إنبجست من عينيه. دخل الممرض، وقالت ملامحه أن الزيارة قد انتهت.

استدار كمال، ومشى. فتح الباب، وخرج. مشى في الممر، ثم هبط الدرجات.هبط معه قلقه المزمن هبطت معه الحيرة والأسى.

مشى قليلاً في الردهة، ثم التفت خلفه.

عند أعلى الدرج، كانت تقف آمنة، وتتابعه بنظراتها. رفع لها يده، وواصل المشي بين عمال النظافة الذين ينظفون البلاط، ويطلقون رائحة مواد التعقيم.

خرج من البوابة الخلفية. خرج وحيداً. قلبه ممتلئ بالوجع، وروحه ممتلئة بالتجاعيد.

\\

عند باب المستشفى، رأي المراسلة التلفزيونية يرافقها المصور.

كانا يضعان معدات التصوير في الصندوق الخلفي للسيارة.

لوّحت له الصحفية الشابة، ثم تركت زميلها وأقبلت نحوه. لم يكن يرغب في الحديث مع أحد. كان بحاجة إلى أن يخلو بنفسه.

سلمت عليه وقالت: هكذا تراني أمامك دائماً.. هل كنت عند مصباح.

هز رأسه بالإيجاب.

قالت: لا تقلق، سيخرج من غيبوبته ويتعافى إن شاء الله.

كانت تحاول مواساته ، أو مواساة نفسها.

ثم سألته: هل ترغب في أن أوصلك..

شكرها، وقال لها إنه يرغب في المشي.

عادت تقول: كنت سأسألك عن ظاهرة أتابعها وأعد حولها تقريراً..

هذه الصحفية الشابة شديدة الإلحاح، لا تتوقف عن الثرثرة، ومع ذلك لا يستطيع أن يتهرب.

عادت تقول: هناك مستوطن من مستوطنة عوفرا متخصص في قتل الأطفال.. يرصد أطفال المدارس على الطرق، ويدهسهم بسيارته.. لقد تكررت الحوادث في قرى رام الله ونابلس وقلقيلية.. الحوادث كثيرة، ولكن الفاعل واحد.

حاولت أن تثير اهتمامه أكثر بسرد المزيد من التفاصيل وأسماء الأطفال، وأسماء الأماكن والطرق.

في الحقيقة أنها أثارت اهتمامه، ولكنه لم يكن في وضع يمكنه من مواصلة الحديث، فقال وهو يهم بالمشي.

- يمكن أن نتحدث في الموضوع في وقت لاحق.. لدي موعد ويتعين علي أن أذهب إليه..

لعلها أدركت أن حواراً داخلياً يدور في أعماقه، وأنه قلق ومتعب.. فابتسمت وأجابته:

– نلتقي في يوم آخر.. لدي هاتفك.. سأتصل.

قالت ذلك، وعادت إلى سيارتها، فيما واصل المشي بخطوات ثقيلة.

***

عاد أخيراً إلى البيت، طرق الباب، ففتح له فراس، وفي الصالون كانت سماح وابنتها، وكانت نوال وبعض الشبان من الطلبة..

سلم عليهم، وجلس.

جاءت جميلة تحمل صينية القهوة.

قامت سماح، وأخذت منها الصينية، ووزعت الفناجين على الضيوف.. وجد نفسه في أجواء شبابية..

ها هم يتحدثون بحيوية ومرح عن تجاربهم في قطف الزيتون في تلك القرية المحاطة بالمستوطنات من كل جانب.

كانت نوال تتحدث عن عائلة أبو طالب.. عن أبو طالب وبغله عنبر..

– مرة كان أبو طالب يركب بغله عائداً إلى القرية، في الطريق صادف حاجزاً إسرائيلياً، كان عليه أن يتوقف، لكنه لم يفعل.

أشار له الجنود الإسرائيليون بالوقوف..

واقترب منه أحدهم: أين بطاقة هويتك..

استهجن أبو طالب ذلك، وقال للجندي:

– أنا رجل فلاح وشيخ ومعروف ولم يطلب مني أحد رؤية هويتي منذ ثلاثين عاماً.

عاد الجندي يقول: أين هويتك؟

أجابه أبو طالب: لسوء الحظ أنني أحملها معي هذه المرة..

وأخرج له البطاقة بالفعل.. نظر إليها الجندي ثم أعادها..

همّ أبو طالب الذي يركب البغل على التوكل على الله، ومواصلة السير غير أن الجندي استوقفه.. حاول أن يسخر منه.

– رأينا بطاقتك، فأين بطاقة البغل؟

نظر أبو طالب إلى الجندي باستخفاف..
– تريد بطاقة عنبر.. عنبر ما زال صغيراً، لا يحمل بطاقة هوية لأنه دون سن ١٦..
ضجّ الحاضرون بالضحك.. وأخذ الحديث أحد الشبان، وروى طرفة أخرى عن أبو طالب وبغله، ثم تطرق الحديث إلى حكايا الفلاحين مع الحواجز، وعن مواجهة جرت مع مستوطنين من مستوطنة دولب حاولوا قطع أشجار الزيتون وتجريف الأراضي بالجرافات..
كان كمال يستمع إلى أحاديثهم ورواياتهم دون أن يشارك .
كان يرصد التحولات في عقول هؤلاء الشبان.. في عقول هذا الجيل الجديد الذي شب في جو التحدي.
ولعل سماح كانت تراقبه، فقد مالت نحوه وقالت:
لسان حالك يقول: ألا ليت الشباب يعود يوماً..
لم يقل شيئاً، وحاول أن يبتسم.. لم يكن يرغب في أن يفسد عليهم سهرتهم، وبدأ يبذل جهداً كي يخرج من عزلته ويندمج في فسحة الأمل التي تطل من أعينهم.

– ٦ –

طقس غائم. رياح باردة تهب من الغرب، أحست سماح بقشعريرة، كان عليها أن تتدثر بكنزة صوف، خاصة وأنها استمعت إلى نشرة الطقس قبل خروجها.أغلقت نوافذ السيارة.
كان عليها أن تذهب إلى اجتماع وسط البلد، في الغرفة التجارية للجنة مقاطعة البضائع الإسرائيلية، وكان عليها أن تمر بعد ذلك على مدرسة تمارا لمتابعة وضعها في المدرسة، وكان عليها أن... استدارت فجأة، وقررت أن تذهب إلى حي الشرفة لزيارة بيت المعاقين أو بيت الأمل كما تسميه جميلة.
على طول الطريق الرئيس في حي (سطح مرحبا) تظهر مستوطنة (بسغوت)، تربض على قمة جبل الطويل ، وثمة دبابة على تخومها تظهر للعيان.
الطريق مليء بالمطبات، خففت السرعة..
تحت الأشجار ينتشر رجال الأمن الوطني مع بنادقهم، يبحثون عن ظل، ومكان يحجبهم عن نيران القناصة الإسرائيليين..
الشارع يخلو تماماً عندما يبدأ إطلاق النار.هذه المستوطنة تستطيع أن تطلق

الرصاص على كل غرفة نوم في البيرة، وأطراف من رام الله..
فكرت بجميلة التي تكابد دون أن تشكو، فالمدرسة تتعرض للنيران في الليل، والأولاد الذين ينامون في القسم الداخلي ، يتعرضون للرعب والفزع.. لا مكان آمن إلاّ بيت الدرج، ومن يدري لعل قذيفة مباشرة تسقط عن عمد أو بالصدفة فوق رؤوسهم..
من الصعب إيجاد موقع بديل، ومن الصعب إيجاد حل غير إعادة الأولاد إلى ذويهم.
هذا الصباح، بعد نشرة الأخبار، اتصلت بجميلة، وبذلت كل ما تستطيع لحملها على الصبر، ولرفع معنوياتها، لكن الكلام لا يجلب الطمأنينة، وظل صوتها الحزين يشي بالقلق.
بدأ رذاذ يتساقط، حركت المساحة، وفكرت في المنعطف الذي يتعين عليها أن تتجه نحوه للوصول إلى المكان.
عند المنعطف كان هناك تجمع، وصورة شهيد أمام مدخل عمارة.المزيد من الشهداء، المزيد من المعزين.
هبطت الطريق الذي يفضي إلى السفح.ثمة مزيد من رجال الأمن الوطني باللباس العسكري وبالأسلحة الخفيفة يقفون أمام متراس من أكياس الرمل ويشربون الشاي.
صباح بارد والمزيد من الرذاذ، والمساحة تتحرك بلا توقف.
رن هاتفها الخلوي.توقفت إلى جانب الرصيف بحثت عنه داخل حقيبتها.. على الطرف الآخر سكرتيرة مكتب الصليب الأحمر في القدس..
الزيارات إلى سجن مجدو ما زالت ممنوعة، وهم سيواظبون على المتابعة.
أغلقت الهاتف وأعادته إلى الحقيبة، وقررت أن تزور في الظهيرة نادي الأسير لعلها تظفر بأخبار جديدة عن فيصل.
توقفت أمام مبنى بيت الأمل، هبطت من السيارة بحقيبتها ورزمة مفاتيحها.
رنّ هاتفها الخلوي، تركته يرن داخل حقيبتها ، بينما كانت تغلق أبواب السيارة.ظل الهاتف يلح، ويواصل الإلحاح.
خطر لها أن تتجاهل هذه المكالمة، ومن ثم تبحث عن الرقم المسجل على شاشة الهاتف، فإذا كان يعنيها، ستطلبه بعد حين.
مشت نحو المدخل. لم يكف الرنين، وصلت الباب.. ظل الهاتف يواصل عناده.
توقفت، فتحت الحقيبة، وبدأت تبحث عنه... الحقيبة مليئة بالأوراق وبأشيائها الخاصة.. غاصت يدها في قاع الحقيبة، وأخرجته، ولحظة أن أمسكت به كفّ عن الرنين توقف. توقف تماماً.
علقت الحقيبة على كتفها، ودخلت الممر. ظل الهاتف بيدها. بضع خطوات، ووصلت

إلى الإدارة. جميلة تجلس وراء مكتبها المزدان باللوحات التي تكشف عذوبة الطبيعة. مرج يعبره قطيع، وصور لزهور البراري: قرن الغزال، الحنّون، إكليل العروس، وشقائق النعمان. لكن لم يكن لوجه جميلة الصفاء نفسه الذي كان في الماضي..

كانت تكت، وعندما رفعت رأسها، فوجئت ثم وقفت وسلمت على سماح بحرارة.

أجلستها على الكنبة في الطرف الآخر من المكت ، وجلست قربها.

تبادلتا الحديث عن الهموم الخاصة، والهموم العامة..

وفيما جاء المراسل بفنجان القهوة، رنّ الهاتف من جديد..

كان هذه المرة أمامها.. تناولته، وضغطت على الزر..

– هالو...

لم يأت صوت من الطرف الآخر، كان الخط مشوشاً.

أعادت سماح النداء

– هالو..

لم تسمع إجابة. انتابها القلق، فسألتها جميلة.

– ما الأمر.

– لا أدري

أجابت سماح، وقد تسللت إليها الحيرة ، وأضافت:

– قبل قليل كان يرن بلا انقطاع.. والآن لا أحد..

أغلقت الخط، وبدأت تبحث عن الأرقام التي يخزنها الهاتف..

قالت لا يوجد أرقام، لعله من الخارج.

وضعت الهاتف على الطاولة، وحاولت أن تصرف التفكير عن المكالمة.

كان القلق قد انتقل بالعدوى إلى عيني جميلة. جميلة تستطيع أن تقرأ الأشياء بذكاء فطري

جميلة تحاول أيضاً فعل شيء يطرد القلق..

– لعله خالك من كندا، سيعاود الاتصال لأن الخطوط هذه الأيام لا تعمل بشكل جيد.

– لا تقلقي وكيف أولادك؟

وكانت تعني الأطفال في المدرسة.

- الطرق مغلقة، والأهالي لا يستطيعون الوصول من المحافظات.

وقفت بالباب معلمة، وإلى جانبها طفل ذي ملامح منغولية. ليس طفلاً بالضبط، وإنما فتى.. ربما في الخامسة عشرة.

طرقت الباب، ودخلت.. وظل الفتى واقفاً وإلى جانبه حقيبة سفر. كان يلبس بدلة سوداء، وربطة عنق ، ويبدو على أهبة الاستعداد للرحيل.

– لدينا كما تلاحظين برنامج لإعادة الأولاد بسلام إلى ذويهم. ثم وقفت، اعتذرت

لسماح، وعادت إلى مكتبها.
تحدثت مع المعلمة، وسلمتها مغلفاً ثم ودعتها إلى الباب، وسلمت على الفتى وقبلته.. وعند ذلك طفرت دموع من عينيه.
مشت المعلمة، وحمل الفتى حقيبته، ومشى وراءها.
عادت جميلة متأثرة. جلست..
– هذا الفتى أبكم، وهو من منطقة سلفيت، وستوصله المعلمة إلى أهله ثم تذهب إلى نابلس في إجازة.
قالت ذلك، وأشارت إلى فنجان القهوة
– لم تشربي قهوتك.. لعلها بردت الآن، سأوصي لك على فنجان قهوة جديد.
وقفت. توجهت نحو النافذة، وأزاحت الستارة قليلاً، ربما لتلقي على الفتى نظرة. ربما للتعبير عن أنها تفتقده.
ثم عادت، وجلست، وربما تكون قد نسيت موضوع فنجان القهوة. وفجأة، رن هاتف سماح الخلوي.
وفجأة أيضاً، انشد إنتباه المرأتين لهذا الرنين.
بلهفة قالت سماح: هالو.. .
من الطرف الآخر جاء صوته. من الطرف الآخر جاء صوته مجروحاً، متحشرجاً، مثخناً، مكتوماً.
- أنا بخير.. اطمئني.
كان صوته.. صوت فيصل.. صوت محاط بالأسلاك الشائكة، بقضبان الزنازين.
– حبيبي.. كيف صحتك بل كيف تمكنت من مكالمتي.. حبيبي هل أنت بخير؟
قالت ذلك وهي في حالة ذهول. تجمع في وجهها دهشة. رغبة في البكاء... إرتباك ليس له مثيل.
– لا تقلقي مهما سمعت من أخبار. أنا بخير.. سأكون بطرفكم قريباً، لا أستطيع أن أتحدث أكثر.. قبلاتي لك ولتمارا.. مع السلامة.
صرخت بصوت عال:
– هالو.. حدثني حبيبي عن أوضاعك...هل تأكل جيداً.. هل تنام جيداً.. هل يتوفر لك الدواء. هل لديك أغطية كافية؟؟
لكن الخط من الطرف الآخر انقطع. لم يعد ثمة صوت.
– هالو.. هالو..
أغلقت الهاتف، وانفجرت بالبكاء، فيما حاولت جميلة أن تفعل شيئاً.
وقفت بالباب إحدى المشرفات، ربما سمعت الصراخ، فجاءت لتستطلع الأمر.
– هاتي كأس ماء.
قالت لها جميلة، وواصلت تهدئة سماح..

– أهو فيصل الذي تحدث؟
واصلت النشيج، ولم تتكلم.
جاءت المشرفة بكأس الماء، وخرجت.
شربت سماح رشفة ماء، وحاولت التوقف عن النشيج.
مر وقت قصير، وبدأت تهدأ.
وحين تكلمت، قالت:
– كانت مفاجأة لي.. ولكن لماذا لم يتكلم أكثر..
واصلت جميلة محاولاتها لبعث الطمأنينة في قلب سماح..
– تعرفين أنهم يمنعون الهواتف في سجونهم، وربما استطاع أحدهم تهريب هاتف نقال ، فاختصر المكالمة خوفاً من المراقبة.
رفعت شعرها، ومسحت عينيها بالمنديل.
– كأن صوته قادم من أعماق كهف.. قلبي منقبض وبدلاً من أن يطمئنني، زاد من خوفي.
وعند ذلك، وقفت جميل ، فتحت النافذة، وتحدثت على الخط الداخلي، وطلبت فنجاناً من القهوة الطازجة، فيما ظلت زهور قرن الغزال، الحنون، إكليل العروس، شقائق النعمان، معلقة على الحائط دون حراك على الرغم من موجة هواء باردة غمرت المكان.

– ٧ –

– خبر صغير جاء في النشرة المحلية للإذاعة الإسرائيلية. خبر ثانوي ورد في نهاية النشرة مفاده أن عدداً من السجناء الفلسطينيين في سجن مجدو تمكنوا من الهرب، وأن أجهزة الأمن الإسرائيلية تلاحقهم..
والخبر يحذر الإسرائيليين ويطلب منهم الحيطة والحذر، والإبلاغ عن أي مشبوه.
في اليوم التالي، كان الخبر على الصفحات الأولى في الصحف الفلسطينية.
الخبر أحدث هزة عنيفة في أعماق سماح. تسمرت قرب الهاتف في منزلها، في المنطقة (ب) من حي (سطح مرحبا).
تأكدت أن هاتفها النقال يعمل بشكل جيد، وضعته على الشاحن طوال الوقت..
رن هاتف المنزل مرات عديدة، أصدقاء ومعارف ونادي الأسير، يتبادلون معها المعلومات الشحيحة.
كان لديها إحساس بأن فيصل شارك في عملية الهروب، وأنه مطارد..
ظلت تستعيد كلماته القليلة، صوته المثخن، المتحشرج، المكتوم، والذي يبدو كأنه قادم من أعماق كهف.

أحياناً كانت تشعر باضطراب، تقف، تهرع نحو النافذة المفتوحة، تلقي نظرة على الشارع، لعلها تراه قادماً، تلوح له، ثم تستدير لتفتح له الباب، وتهيء نفسها لمعانقته..

تتخيله يعود، بثياب ممزقة، ووجه شاحب، وأنفاس متقطعة..

تحيطه بذراعيها. تشم رائحة عرقه، تلثم خده، وشعره، وأصابع يديه..

منذ الصباح، لم تستطع عمل شيء. لم تذهب لعملها، وأرسلت تمارا إلى المدرسة بسيارة أجرة، وظلت تنتظر..

الوقت يمر بطيئاً، وكلما رن الهاتف تتعالى دقات قلبها، ترفع السماعة ويدها ترتجف.. تنتظر أن تسمع صوته. صوت فيصل الحبيب والإنسان.. تنتظر صوته الخافت، المتعب، المعذب..

لكن المكالمة تأتي من أحد معارفها، من أحد أقاربها، من أصدقاء في جمعيات تعنى بشؤون الأسرى..لا جديد.. الأخبار الشحيحة نفسها، يحاولون إدخال الطمأنينة الى قلبها، يحاولون شحنها بالقوة، ويفتحون أمامها أبواب الأمل..

لكن قلبها الممتلئ بالوجع.. قلبها الأرعن.. قلبها الغريق، لا تدخله الطمأنينة..

كل الاحتمالات واردة ، الطرق مليئة بالحواجز والأسلاك والدبابات والكلاب البوليسية.

تجلس على الكرسي في الشرفة، تنظر إلى الطريق، وتواصل القلق، ويبدأ خيالها في صنع الكوارث.

تتخيل الدروب والطرق والمنحنيات.. أين أنت الآن يا فيصل؟

أين تختبئ؟ هل تفلت من المطاردة؟ هل تعرف الطرق التي تفضي إلى النجاة؟

تتخيله يعدو في التلال، وعبر الأدغال، ووسط الحقول بينما الجنود والكلاب البوليسية يقتفون أثره..

وتحاول أن تطرد من رأسها الخيال الوحشي.. تحاول أن تقلب الصورة، وتتخيله ينفذ من بين حواجزهم كالسهم، تتخيله يستبدل ثياب السجن، ويتخفى بثياب جديدة، ويقف على الشارع ليوقف سيارة أجره، تنقله إلى محطة، ومن تلك المحطة ينتقل إلى محطة أخرى، وربما يتجه إلى القدس، ومن هناك يركب سيارة ذات لوحة صفراء ، ويأتي إلى الرام، ومن الرام يمشي من وراء الحواجز، فيصل مخيم قلنديا، ومن قلنديا إلى (سمير أميس)، ثم يصل طريق (كفر عقب)، ثم يصبح على أبواب (سطح مرحبا).

وعند ذلك، تهرع إلى النافذة المطلة على طريق كفر عقب.. تدقق النظر إلى الشارع، إلى أقصى مكان يدركه البصر.

الطريق مهجورة.. بين حين وآخر، تمر سيارة، أو عابر سبيل، ولا شيء غير

ذلك..

تعود إلى مقعدها في الشرفة، لكنها لا تستطيع المكوث طويلاً..

تفكر بكل شيء، ولا تستطيع عمل شيء.

تنتقل ما بين الشرفة والصالون وغرف النوم، وما بين غرف النوم والمطبخ دون هدف..

رنّ الهاتف، خطر لها أن هذا الهاتف من كمال أو جميلة، فهما لم يتصلا بها حتى الآن، لعلهما لم يسمعا بالخبر، ورفعت السماعة..

لم يكن كمال، ولم تكن جميلة، مكالمة عادية مثل المكالمات السابقة من سيده ترغب في الثرثرة.

وضعت سماعة الهاتف ، وتذكرت بأنها لم تشرب قهوتها هذا الصباح.

ذهبت إلى المطبخ، ووضعت ركوة القهوة على النار.. شربت قهوتها في الشرفة. هذا المكان المفضل لفيصل قبل السجن.. كان يحرص على شرب القهوة معها في الشرفة قبل أن يفترقا كل إلى عمله..

يحتسي معها القهوة، يلاطفها، ويمازحها، ويسرد عليها تفاصيل برنامج يومه.

كان مفعماً بالأمل، وبزوال الاحتلال، وكان ينخرط في العمل السياسي بكامل طاقته.

وقفت من جديد، ومشت إلى الصالون.. صورتهما معلقة على الحائط. صورة الزفاف. هي بثوب العرس الأبيض، وهو ببدلة سوداء، وربطة عنق حمراء، وبابتسامة رقيقة تضيء وجهه الوسيم.

لأول مرة منذ سنوات طويلة تدقق بالصورة، تحاول أن تقرأ أيام الماضي الجميل.

لكن الوساوس هاجمتها فجأة.. كوابيس اليقظة اللعينة.. الكوابيس، والخيال الوحشي.

هزت رأسها أو لعلها هزت بدنها لتطرد الخيالات الشيطانية..

ستعود سالماً، قالت بصوت عال.. ستعود سالماً، ونعيش من جديد..

هتفت مرة أخرى، سنعيش من جديد.. وأسرعت إلى غرفة النوم. فتحت الخزانة.. ها هي حقيبته الصغيرة، حقيبة العمل ما زالت في مكانها.. ها هو المغلف الذي يحتوي على أوراقه الخاصة.

في درج الخزانة نظارته.. جواربه.. بعض ملابسه الداخلية.. ثيابه معلقة في الخزانة.. بدلته السوداء، بدلة العرس، وبدلته الرمادية المحببة إليه. الجاكيت الكاروهات، البنطلون البني، ربطات العنق، القمصان الصيفية..

رائحته موجودة ، أنفاسه، صوت الماء وهو يستحم، منشفته الخضراء، روب

الحمّام الأبيض.. آخر علبة سجائر.. الغليون الذي كان يستعمله بين حين وآخر.. رقعة الشطرنج.. الكتب المتناثرة..

حاولت أن تتماسك. حاولت أن تمنع نفسها من البكاء، حاولت أن تمنع نفسها من السقوط..

جثت على ركبتيها، وانخرطت في نشيج متقطع.. أحست أن البكاء يريحها.. وقفت ومسحت عينيها بالمنديل. ماذا تفعل؟

الوقت يمر بطيئاً.. الوقت مثل حجر الطاحون يسحق صبرها وصمتها.

ماذا تفعل.. ها هي منذ الصباح تأتي وتذهب.. تغدو وتروح.. تصمت وتبكي.. يكاد يصيبها الجنون.

تنظر إلى الهاتف الذي صمت وكفّ عن الرنين.

تنظر الى المقاع ، الستائر، منافض السجائر، الصور المعلقة، طاولة الطعام، نباتات الزينة، وتنظر عبر النافذة الى الفراغ.. كل شيء اصبح فراغاً.. الفراغ يملأ روحها..

أين أنت يا كمال... أين أنت يا جميلة؟

رفعت سماعة الهاتف، وطلبت رقم البيت.. يرن الهاتف على الطرف الآخر.. لا أحد..

اتصلت به في مكتبه، رد شخص آخر، وقال انه أخذ إجازة طارئة.

لم يبق أمامها إلا الاتصال بجميلة على هاتفها في المدرسة.

أجابت السكرتيرة بأنها غير موجودة.

ما الأمر؟ خطر ببالها ما لا حصر من الهواجس والظنون، واستبد بها خيال وحشي يربط بين غيابهما وهروب فيصل من السجن، وبدأت الهواجس تكبر، وأخذت تذرع الغرف والصالون .. ثم أخرجت علبة السجائر من حقيبتها، وأشعلت سيجارة، وتوجهت الى الشرفة.. وأطلت على الشارع.. سيارات تمر مسرعة على الجانبين، وبائع متجول يدفع عربة مكتظة بالخضار، وامرأة في شرفة مقابلة تنشر الغسيل..

الضجيج في أعماقها يعلو على صوت الضجيج في الشارع.

إذا بقيت تدور في هذا البيت سيصيبها الجنون..

ما العمل؟

أطفأت السيجارة وفكرت بالخروج، ربما تستطيع أن تحصل على معلومات جديدة.

أو على الأقل يمكن أن تجد من تتجاذب معه أطراف الحديث.

أو ربما تستطيع أن توقف حالة الانتظار والترقب بالاندماج في العمل..

فكرت أن تقطع الإجازة وتعود الى عملها، وعند الظهيرة تذهب الى المدرسة

لإحضار تمارا..
فكرت أن تذهب الى جريدة الأيام أو جريدة الحياة الجديدة، وتسأل الصحفيين عما لديهم من معلومات عن الهروب من سجن مجدو..
فكرت أن تذهب الى مؤسسة مفتاح أو الى بيت الشرق في القدس، لعلهم يساعدونها في معرفة ما جرى..
فكرت أن تذهب الى مكتب الرئيس، لعل لديهم تقارير سرية عن الأحداث..
خطرت ببالها خواطر عدة، ولكنها لم تحسم شيئاً، وظلت تقلب أمرها دون أن تحدد هدفاً.
ومرة أخرى، شعرت بحاجة الى أن تكلم كمال أو جميلة، فاندفعت الى الهاتف..
طلبت جميلة، ردت السكرتيرة بأنها غير موجودة.. غير أن سماح عادت تسأل بإلحاح:
– ماذا يعني غير موجودة.. هل هي مريضة.
– أجابت السكرتيرة: لا.. غير موجودة.. قالت لي إذا سأل أحد عني قولي إنني غير موجودة. نفذ صبر سماح، فقالت بحدة:
– تعرفين صلتي بجميلة... قولي الحقيقة.. أين هي بالضبط؟
مرّ وقت قصير ، قبل أن تقول السكرتيرة بصوت خافت مضطرب:
– لا أستطيع أن أتحدث بالهاتف. هل يمكنك الحضور لنتحدث على انفراد؟
– هاجمتها الوساوس من جديد، وأيقنت أن ثمة صلة بين غياب جميلة وكمال وبين موضوع فيصل..
– أعادت السماعة، وأحست بأنها ترتعش، وان ساقيها لا تقويان على حملها، فجلست على الكنبة.
جلست قليلا لتستجمع قواها، جلست قليلا لتحاول إعادة ترتيب أفكارها، ثم وقفت... أسرعت الى الخزانة، وأخرجت حذاءها..
تناولت حقيبتها، وهاتفها النقال، ورزمة مفاتيحها، وهمت بالخروج.. غير أن أصوات جلبة وضوضاء في الخارج وصلت الى مسامعها..
عادت الى الشرفة، وألقت نظرة...
هناك، أمام العمارة المجاورة، كان عدد من السيارات العسكرية، وحشد من الجنود الإسرائيليين يطوقون المكان، فيما ابتعد الناس، وبدأت المحلات تغلق أبوابها.
تسمرت مكانها.. هناك حملة تفتيش كما يبدو..
عليها أن تتهيأ للأمر... سيقلبون كل شيء رأسا على عقب..
أيقنت انهم يبحثون عن فيصل.
حاولت أن تستعيد قواها، أن تبدو أمامهم إذا ما جاءوا رابطة الجأش.

حاولت أن تبدو طبيعية، وان تواجههم بلا اكتراث، وان تجابه إذا ما اقتضى الأمر، وان تتحول الى نمرة إذا ما حاولوا الإساءة..

خلعت حذاءها، وألقت بالحقيبة جانبا، وأعادت رزمة المفاتيح الى الطاولة، والهاتف الخلوي الى جهاز الشحن، وجلست على الكنبة تنتظر.

رام الله